الراهب الأسود

أنطون تشيخوف



أنطون تشيخوف

الراهب الأسود

ترجمة : فؤاد أيوب و سهيل أيوب

- ١ -

كان الأستاذ أندريه فاسيليفيتش كوفرين قد أرهق أعصابه وأساء إليها كثيراً، وأنهك قواه وبددها في عبث ولا مبالاة، دون أن يسعى أبداً إلى الخضوع لمعالجة منتظمة تقضي على الاضطراب الذي أصابه من جراء العمل الطويل المضني الذي فرضه على نفسه طوال مدة مديدة من الزمن... ولكنه تحدث عن همومه صدفة إلى طبيب من أصدقائه، وقد جلسا إلى مائدة الشراب حول زجاجة من الخمرة، فأشار عليه صديقه الطبيب بقضاء فصلي الربيع والصيف في الريف، بعيداً عن متاعب المدينة وضوضائها. وفي أثناء ذلك وردته رسالة طويلة من تانيا بيسوتزكي تسأله فيها القدوم إلى بوريسوفكا لقضاء مدّة من الزمن مع أبيها، فحزم أمره على الذهاب، مقتنعاً بأن السفر لن يحمل إليه في الحقيقة إلا المتعة والراحة والسرور.

ولكنه سعى قبلاً (وكان ذلك في نيسان) إلى ملكيته الخاصة، إلى كوفرينكا حيث شاهد النور، وقضى هناك ثلاثة أسابيع في عزلة مطلقة تامة، حتى إذا هلّ الطقس الجميل عبر الريف متوجهاً إلى بيسوتزكي، الوصي السابق عليه وقريبه في الوقت نفسه، وهو اختصاصي في زراعة الحدائق والعناية بها قد طبَّقت شهرته أنحاء الروسيا بأسرها... وكانت سبعون فرسخاً تفصل بين كوفرينكا وبوريسوفكا –موطن عائلة بيسوتزكي– والرحلة في العربة الصيفية الخفيفة المريحة عبر تلك الطرقات التي أضفى الربيع عليها حلة رائعة لطيفة تبشر بمتعة حقيقية لا مراء فيها.

كانت دار بوريسوفكا كبيرة واسعة الأرجاء، يقوم في مقدمتها صفّ من الأعمدة الجميلة، وتزينها تماثيل أسود قد تساقط الجصّ عنها في بعض الأماكن، ويقف على بابها دوماً خادم في لباس رسمي... وكانت الباحة الخارجية العتيقة، المظلمة، القاسية، المنظمة على الطريقة الإنكليزية، تمتد حتى فرسخ من الدار تقريباً وتبلغ النهر حيث تنتهي بضفة موحلة تغطيها أشجار الصنوبر التي أشبهت جذوعها المعرَّاة مخالب خشنة شعثاء قاسية... وإلى الأسفل من ذلك كانت ساقية مهجورة تتضوأ ببريق وقح، وإلى الأعلى منها يحوّم طير الشنقب وهو يرسل صيحات حزينة كئيبة...

كان كل شيء، باختصار، يدعو الزائر إلى الجلوس كي يكتب قصة شعرية غنائية... ولكن الحدائق والبساتين التي تحيط بالدار، والتي تبلغ مساحتها ثمانين فداناً تقريباً، كانت توحي بمشاعر أخرى

تختلف عن المشاعر السابقة كل الاختلاف؛ فهي متألقة حتى في أسوأ الأحوال الجوية، تبعث اللذة والحبور في نفس الناظر إليها، وترسل الهدوء والارتياح في عينيه... يا للأزاهير الرائعة المدهشة، ويا للزنبق والكامليا المزدهرين في كل مكان...! يا للسوسن الجميل، ويالتلك الوفرة العظيمة من النباتات المورقة من كل نوع وجنس، مختلفة الألوان من الأبيض الناصع حتى الأسود المغرق في السواد! يا لثروة البراعم العجيبة التي لم ير كوفرين نظيراً لها قط في حياته!...

كان الربيع في مطلعه بعد، وأكثر الورود ندرة وزينة ما برحت خفية تحت العشب لما تطل برؤوسها من بين عروقه... ولكن عدداً منها كان يزدهر منذ الآن في الممرات ودروب الحديقة ومضاجعها، كثيراً حتى ليكفي كي يؤلف مملكة كاملة من الظلال الناعمة اللطيفة التي تبدو أروع ما تكون في الساعات المبكرة من الصباح، عندما تبرق قطرة من الندى وتتلألأ على كل تويج وكل ورقة...

كان القسم المزخرف من الحديقة الذي أطلق عليه بيسوتزكي، في استخفاف، اسم «اللمامة» قد ترك في نفس كوفرين -أيام الطفولة- انطباعاً يكاد أن يكون خرافياً... أي معجزات فنية، وأي مسوخ مقصودة، وأي ألاعيب من صنع الطبيعة الخصبة نفسها!... هذه صفوف من الأشجار المثمرة قد تعانقت كالعرائش وتشابكت، وتلك شجرة إجاص أشبهت شجرة حور هرمية الشكل، وهنا وهناك أشجار من البلوط والزيزفون كروية الهيئة، ومظلات من شجر التفاح، إضافة إلى ذلك قناطر، وطرر، وثريات، بله التاريخ (١٨٦٢) تخطّه في الفضاء العريض الحرّ أشجار البرقوق، إحياء لذكرى السنة التي بدأ بيسوتزكي فيها يكلف بفن العناية بالحدائق... وكانت هناك أشجار فخمة متناظرة، منتصبة الجذوع كالنخيل، إذا ما تفحصتها وجدت أنها عبارة عن شجر عنب الديب أو أي نوع آخر مألوف من الشجر ليس غير...

ولكن الحركة المستمرة التي تضطرب الحديقة بها هي التي كانت تبعث الحياة في أرجائها أكثر من أي شيء آخر، وتضفي عليها جواً رائعاً من البهجة والحبور... كنت تجد، منذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل، أناساً دائبي الحركة كالنمل، يروحون ويجيئون قريباً من الأشجار، وفي الممرات أو مضاجع النبات، يدفعون عربات صغيرة إلى الأمام منهم، أو يعملون الفأس في الأرض أو بعض الأغصان، أو يسقون التربة من أوعية الماء التي يحملونها...

كانت الساعة تقارب التاسعة عندما وصل كوفرين إلى بوريسوفكا، فوجد تانيا وأباها في اضطراب شديد... إن الليل الصافي حيث تبرق النجوم في كبد السماء النقية بلمعانٍ قاسٍ ينبئ بالجليد، يؤيده ميزان الحرارة في ذلك، وقد ذهب إيفان كارليتش رئيس البساتين إلى المدينة، فلم يبق هناك شخص يمكن الاعتماد عليه... ولم يجرِ الحديث أثناء العشاء إلا عن الجليد العتيد وعن

السبيل إلى تجنب أضراره، حتى قرَّ عزمهم في النهاية على ألا تغدو تانيا إلى فراشها مطلقاً، بل تظل يقظة كي تتجول في الحدائق في الساعة الواحدة تتحقق من أن الأمور تسير على ما يرام، بينما يفيق بيجور سيميونوفيتش نحو الساعة الثالثة، وربما أبكر من ذلك أيضاً.

قضى كوفرين المساء برمته بصحبة تانيا، ثم رافقها بعد منتصف الليل إلى الحديقة... كان الجو بارداً، يعبق منذ الآن برائحة الحريق، بينما راحت تزحف على طول الأرض، في البستان الكبير المدعو «بالمتجر» والذي يعود على بيجور سيميونوفيتش بآلاف الروبلات من الأرباح كل عام، سحابة كثيفة سوداء، خانقة من الدخان يراد منها تغطية الأوراق الفتية والنباتات وحمايتها من الجليد وأخطاره... وكانت الأشجار مرتبة في صفوف منتظمة أشبه ببيادق الشطرنج، أو بالأحرى بصفوف من الجنود متراصّة في استعراض مهيب، فإذا هذا الانتظام المتحذلق، بالإضافة إلى اطراد الارتفاع، وتساوي الجذوع في الحجم، والأغصان في الاتساع، تجعل الحديقة تبدو رتيبة، بل مضجرة باعثة على السأم... وراح كوفرين وتانيا يذرعان أرض الممرات في غدوٍ ورواح، يراقبان النيران المتصاعدة من الأسمدة والقش والنفايات المحروقة، وفي بعض الأحايين يلتقيان بالعمال المتجولين وسط الدخان أشبه بأشباح خرافية... كان الكرز والبرقوق وبعض أشجار التفاح فقط مزدهرة يانعة، بينما الحديقة بأسرها مكفنة بالدخان غارقة في أمواجه المتلاحقة، بحيث لم يستطع كوفرين أن يتنفس إلا عندما بلغا الأرض العارية، المزروعة بالبذور فقط..

قال وهو يهز كتفيه: إني أتذكر يوم كنت طفلاً صغيراً بعد أعطس من الدخان ههنا، ولكنني لم أفهم –حتى الآن– كيف ينقذ الدخان الزهور من الجليد!

فأجابت تانيا: إن الدخان يعيض عن الغيوم في حال غيابها.

– ولكن ما فائدة الغيوم؟

– في الطقس المضبّ الغائم لا يحدث جليد صباحي.

فقال كوفرين: أهذا صحيح؟

ضحك وأمسك بتانيا من يدها... غمره الحنان لمرأى وجهها العريض، كثير الرزانة، المقشعر من البرودة القارسة، وحاجبيها الكثيفين الأسودين، وياقة معطفها المنتصبة القاسية التي تمنعها من تحريك رأسها بحرية كيفما تشاء، وثوبها المزخرف بالندى، ومجمل هيئتها، المنتصبة الرشيقة.

قال في نفسه: يا للسماء! لشد ما كبرت!

ثم أضاف: لقد كنت طفلة بعد يوم غادرتكم للمرة الأخيرة، قبل خمس سنوات تقريباً!... لقد كنت

حينذاك شديدة النحول، طويلة الساقين، لا تعتنين بالأناقة مطلقاً، وترتدين فستاناً قصيراً يتبعثر شعرك فوقه على هواه، وكنت أسخر منك... يا له من تبدل عظيم في هذه السنوات الخمس!

وتنهدت تانيا، وقالت: نعم، خمس سنوات! لقد حدثت أشياء عديدة منذ ذلك الحين...

ثم أضافت، وهي تتفرس في وجهه بمرح وحبور: أخبرني يا أندريه بإخلاص، هل تحس أن الشقة فيما بيننا قد اتسعت؟ ولكن، ما بالي أطرح مثل هذا السؤال؟ فأنت شاب، تعيش حياتك الخاصة الخطيرة، وأنت... إنَّ بعض الأعراض لطبيعي جداً! ولكن، سواء كان لك يا أندريوشا أم لا، فأنا أريد منك الآن أن تعدّنا كأهلك تماماً... إن لنا الحق في ذلك!

– ولكني أعدّكم كذلك حقاً وفعلاً، يا تانيا.

– أتعد بشرفك؟

– بشرفي!

– لقد دهشت لكثرة صورك الشمسية التي نحتفظ بها... ولكنك تعرف ولا شك كيف يحبك والدي وكيف يعبدك حتى ليخال لي أحياناً أنه يحبك أكثر مني! وهو فخور بك، فأنت عالم كثير المعرفة، وإنسان فوق عادي في الحقيقة، ولقد حصلت نجاحاً متألقاً، وهو راسخ الاعتقاد بأنك ما بلغت هذه المرتبة إلا لأنه أشرف بنفسه على تثقيفك وتربيتك... وأنا لن أتدخل في هذيانه أبداً... فليظل على إيمانه بذلك!

وكان الفجر...

شحب لون السماء، وأخذت أوراق النباتات وسحب الدخان تبين بوضوح أكثر منه ذي قبل، وترتسم في الفضاء جلية الحدود والاستدارات... وغرد العندليب، بينما دفدفت أصوات السمّن من الحقول المجاورة...

قالت تانيا: لقد حان وقت النوم، والطقس بارد أيضاً...

وأمسكت بيد كوفرين، واسترسلت: شكراً لمجيئك، يا أندريوشا! لقد بلينا بأكثر المعارف تفاهة ههنا، وهم قلة على الرغم من ذلك... وإن همنا الوحيد هو الحديقة... الحديقة، الحديقة ولا شيء غير الحديقة مطلقاً...

وضحكت...

– جذوع، وأخشاب، وتفاح، وخمائر، وبرعمة، وتشذيب الشجر وتطعيمه... كل حياتنا تذهب في الحديقة، حتى إننا لا نحلم بشيء آخر سوى التفاح والإجاص. لا ريب أن هذا كله شيء حسن ومفيد للغاية أيضاً ولكنني لا أستطيع الامتناع، في بعض الأحيان، عن الحنين إلى شيء من التنوع... إني

أتذكر كيف كان البيت بأسره يتلألأ وتدب النضارة في أرجائه، فكأن أحدهم قد نزع الأغطية عن الأثاث، عندما كنت تأتي لزيارتنا أو تعود إلى الدار لتقضي فترات العطل بيننا... لقد كنت يومذاك طفلة صغيرة جداً، ولكنني كنت أدرك ذلك بوضوح...

تحدثت تانيا هكذا مدّة من الزمن، تحدثت بعاطفة وإخلاص عظيمين... وعندئذ ومض في خاطر كوفرين على حين غرة أنه قد يصبح متعلقاً، خلال هذا الصيف، بهذا الكائن الصغير، الضعيف، الثرثار، وأنه قد يضيع لبه، فيقع في حبها –وذلك أمر طبيعي وشديد الاحتمال في مثل حالهما! أبهجته الفكرة وأطربته، فردّد في نفسه –وهو ينحني على ذلك الوجه اللطيف المرتجف– هذا المقطع من شعر بوشكين[١]:

«إنني لن أخفي ذلك يا أورنيجين

فأنا أحب تاتيانا بجنون وشغف...»

وعندما بلغا الدار كان بيجور سيميونوفيتش قد أفاق من نومه، فواصل معه كوفرين –ولم تكن به رغبة في النوم– أطراف الحديث... وقفل راجعاً وإياه إلى الحديقة... كان بيجور سيميونوفيتش طويل القامة، عريض المنكبين كبير البطن، يعاني ضيق نفس شديد، ولكنه يسرع في السير على الرغم من ذلك حتى يصعب جداً اللحاق به... وكانت سيماؤه دائمة الاضطراب، يلوح في عجلة من أمره دوماً حتى ليخال المرء أنه يفكر دون انقطاع أن تأخره ثانية واحدة فقط سيقود إلى كارثة رهيبة تحل بكل شيء على الإطلاق... قال، وقد وقف ريثما يتمالك أنفاسه، إليك، يا صاح، هذا السر الغامض! أن الجليد يغطي الأرض كما ترى ولكن ارفع مقياس الحرارة بضعة ياردات على عصاك كي تجد أن الطقس دافئ في العالي... فلم ذلك؟

فأجاب كوفرين ضاحكاً: أعترف أني لا أدري.

– كلا!... أنت لا تستطيع أن تعرف كل شيء... إن أكبر دماغ في العالم لا يستطيع أن يستوعب كل شيء. إنك تعنى بالفلسفة دوماً؟

– نعم... إنني أدرس علم النفس، والفلسفة على العموم.

– ألا يضجرك ذلك؟

– على العكس، فأنا لا أستطيع الحياة دونه.

فقال بيجور سيميونوفيتش، وهو يسوّي شاربيه مستغرقاً في التفكير: حسناً، فليكن الله في عونك... إنني سعيد جداً من أجلك، يا أخي، سعيد جداً...

وراح فجأة يصيخ السمع، وقد تقطب وجهه بصورة مخوفة، ومن ثم ركض عبر الممر، وسرعان ما اختفى عن النظر بين الأشجار وسط سحب من الدخان.

وتردد صوته ملؤه اليأس والقنوط: من ربط هذا الحصان إلى هذه الشجرة؟ من منكم أيها اللصوص والقتلة قد تجاسر فربط هذا الحصان إلى شجرة التفاح هذه؟ يا إلهي، يا إلهي! لقد أتلفوا كل شيء، أفسدوه ودمروه! لقد فسدت الحديقة، لقد اندثرت الحديقة! يا إلهي!

وعندما رجع نحو كوفرين، كان وجهه يحمل سيماء الألم والإعياء والاضطراب...

سأل في صوت باكٍ، وقد ضمَّ يديه في إشارة توسل: ماذا تستطيع أن تفعل بهؤلاء القوم الكافرين الملعونين؟ لقد جلب ستيبكا البارحة إلى هنا عربة من السماد، وربط الحصان إلى هذه الشجرة من التفاح... لقد ربط العنان، ذلك الأبله، ربطه بشدة بحيث زال اللحاء في مواضع ثلاثة من الجذوع! ماذا تستطيع أن تفعل بمثل هؤلاء القوم؟ لقد أوضحت له ذلك عبثاً، بينما يطرف بعينيه ويتطلع إلي كالأبله. إنه يستحق الشنق!

وعندما هدأت ثورته أخيراً، عانق كوفرين على وجنتيه وهو يتمتم: حسناً فليكن الله في عونك... فليكن الله في عونك... إنني سعيد، سعيد جداً بمجيئك... ولست أستطيع أن أعبِّر عن مبلغ سروري، فشكراً!

ومن ثم جاس الحديقة بكاملها، يمشي بالخطوات المتسارعة نفسها، ووجهه يحمل سيماء القلق عينه، يطلع تلميذه السابق على أشجار البرتقال التي زرعها، وغرف الحرارة الاصطناعية، والمظلات، وخليّتين للنحل وصفهما بأنهما معجزة القرن من دون أدنى ريب على الإطلاق...

وفيما هما يتجولان نهضت الشمس من كبوتها وأضاءت الحديقة بأسرها، بينما أخذ الطقس يزداد حرارة شيئاً فشيئاً... وعندما فكّر كوفرين في النهار الطويل المشرق عليه، تذكر أن أيار ما برح في مطلعه، وأن أمامه صيفاً كاملاً من الأيام الطويلة المشرقة السعيدة... وعلى حين غرة، خفق في باطنه ذلك الشعور الفتيّ المبتهج الذي عرفه يوم كان طفلاً غريراً يلهو في هذه الحديقة عينها... وعانق بدوره الشيخ وقبّله بحنان، ومن ثم عاد الاثنان أدراجهما إلى الدار، وقد أثارت الذكرى شجونهما، وطفقا يشربان الشاي معاً في أقداح من الصيني القديم، ويطعمان كعكاً وقشدة طازجين في الوقت نفسه. وكانت هذه الهنيات جميعاً تذكر كوفرين بطفولته وصباه مرة ثانية، فيمتزج الحاضر الرائع بذكريات الماضي المستيقظة، ويمتلئ قلبه بشعور لا متناه من السعادة الشديدة والفرح المفرط.

وانتظر يقظة تانيا، فتناول القهوة وإياها، وتنزه خلال الحديقة برهة وجيزة، ومن ثم غدا إلى غرفته وشرع يعمل... كان يقرأ بانتباه وإمعان، ويدوّن بعض الملاحظات، ولا يرفع عينيه عن الكتاب إلا عندما يحس الحاجة إلى التطلع من خلال النافذة، أو النظر إلى الورود الطرية الناضرة التي ما برحت ندية بالطل بعد، والموضوعة في بعض الآنية على طاولته... كان يخيل إليه أن كل وريد صغير في جسده يضطرب بالسرور ويرتجف، ويخفق بالغبطة وينبض...

غيـر أن كوفريـن استمر في الريف يعيش الحيـاة المضطربة القلقة نفسها التـي كان يحياها في المدينة. فهو يقرأ كثيراً، ويكتب كثيراً، ويتعلم اللغة الإيطالية، وإذا خرج في نزهة قصيرة فهو لا يفكر إلا في لذة العودة إلى العمل دوماً...

وكان لا ينام إلا قليلاً جداً، حتى أثار ذلك منه ذهول سائر سكان المنزل على الإطلاق، وإذا حدث صدفـة أن أغفـى فـي النهـار نصف ساعة من الزمـن، فالنوم لن يقتـرب من جفونه إذن طـوال الليلة التـالية... وعلى الرغم من ذلك فقد كان يبدو على الدوام نشيطاً مرحاً بعد تلك الليالي المؤرقة...

كان يتكلم كثيراً، ويشرب الخمرة دون حساب، ويدخن لفائف ثمينة غالية القيمة... وكانت بعض الفتيـات يقدمـن لزيارة تانيا مـن الدور الريفية المجـاورة في كل يوم تقريباً، فيعزفـن على البيانو، وينشـدن الأغاني الحلوة بعض الأحيان، ويمرحن كثيـراً في كل الأوقات... ومن حين لآخر كان يزور تانيـا أيضـاً شـاب في مقتبـل العمر، داره قريبـة من بوريسوفـكا، يجيد العزف علـى الكمان بصورة رائعـة... وكان كوفريـن يصغي إلـى موسيقاهـم وأناشيدهم في شـوق ولهفـة، وإن كان ذلك يضنيه أحياناً، يضنيه حتى تنطبق أجفانه دون إرادة منه، ويسقط رأسه على كتفه متعباً ناعساً...

وذات مسـاء، بعـد تناول الشـاي، جلس في الشرفة يقـرأ، بينما كانت تانيـا –سوبرانو–، وإحدى صديقاتهـا –كونترالتو–، والعـازف الشاب على الكمان، يدرسون سيرينـادا براجا الشهيرة. وأصغى كوفريـن إلـى الكلمات، ولكنه لم يفهم معناها على الرغم مـن أنها روسية صميمية، حتى وضع أخيراً كتابـه جانبـاً، وأصـاخ بسمعه في انتباه شديد، فاستطـاع أن يفهم الكلمات جيـداً... إن فتاة مريضة الخيال قد سمعت، ذات ليلة، أصواتاً غريبة في الحديقة، أصداء جميلة جداً وعجيبة جداً اضطرت معها إلى الاعتراف بموسيقاها الشجية وقدسيتها العلية اللتين تعصيان على إدراكنا نحن الفانين، ومن ثم حلقت تلك الأصداء تعود أدراجها إلى السماء...

وثقلـت أجفان كوفرين وتراخت، فنهضـ على قدميه، وراح يذرع أرض قـاعة الاستقبال في جيئة وذهـاب متعباً منهوك القوى، ومن ثم انتقل إلى الصـالون الكبير يتابـع فيه غدوه ورواحه دون انقطـاع... وعندما انقطعت الموسيقا، أخذ تـانيا من ذراعها، وقادها إلى الشرفة.

راح يقـول: لقـد شُغل فكري طـوال النهـار، منذ الصبـاح البـاكر، بـأسطـورة غريبة ولست أستطيع أن أتذكـر أين قرأتها، أو أين سمعتهـا... لكنها أسطورة غريبة جداً ومن نوع خـاص في الحقيقة. وقبل كل شـيء فهي غـامضـة، قليلة الوضـوح، فحواها أن أحد الرهبـان المتّشحين بـالسـواد كان يضرب على

وجهه، قبل ألف من السنوات، في الصحاري المقفرة، في مكان ما من سورية أو الجزيرة العربية... وقد شاهد صيادو السمك، على بعد عدة أميال منه، راهباً آخر متشحاً بالسواد يتحرك ببطء على سطح البحيرة... إن هذا الراهب الثاني لم يكن إلا سراباً ليس غير!... والآن، انزعي من فكرك سائر قوانين علم البصريات، التي لا تعترف الخرافات بها طبعاً، واستمعي إليّ: لقد نشأ عن السراب الأول سراب آخر، وعن هذا السراب الثاني سراب ثالث وهكذا دواليك بحيث ما برحت صورة الراهب الأسود تنعكس على الدوام من طبقة في الفضاء إلى طبقة أخرى... فقد شوهدت في إفريقيا، ثم في إسبانيا، ثم في الهند، ومن ثم في أقصى الشمال... ولقد أفلتت أخيراً من حدود الجوّ الأرضي، وراحت تتيه في المسافات بين النجمية دون أن تقع أبداً في الشروط التي تؤدي إلى اختفائها وتلاشيها... لعلها تُرى حالياً في المريخ، أو في كوكبة الصليب الجنوبي... ولكن الأمر الرئيسي، جوهر الأسطورة بأسرها، يقوم في أن ذلك السراب سوف يعود فيرتمي –بعد ألف سنة من خروج الراهب إلى الصحراء بالضبط –في جو الأرض ويظهر لأعين هؤلاء البشر الفانين... ويبدو أن فاصلة السنوات الألف هذه قد أشرفت حالياً على الانتهاء... يجب أن نتوقع حضور الراهب الأسود، حسب ادعاء الأسطورة، هذا اليوم أو في الغداة على الأكثر.

فقالت تانيا، التي لم ترق الأسطورة لها مطلقاً: إنها لقصة غريبة حقاً!

فأغرق كوفرين في الضحك، وقال: ولكن ما يدهشني أكثر من أي شيء آخر، هو أني لا أستطيع أن أتذكر كيف دخلت هذه الأسطورة رأسي. هل قرأتها؟ هل سمعتها؟ أو لعلي قد حلمت بالراهب الأسود؟ إني لا أذكر، ولكن الأسطورة تثير اهتمامي بكل تأكيد، حتى إني ما برحت أفكر فيها طوال النهار...

وأفلت تانيا التي قفلت راجعة إلى ضيوفها، وغادر الدار، وانطلق يتمشى إلى جانب مضاجع الورد مستغرقاً في لجة من التفكير العميق. كانت الشمس تميل نحو المغيب، والأزاهير المسقية حديثاً تعبق برائحة رطبة مثيرة، والموسيقا تتعالى من جديد في الدار، فيدفدف صوت الكمان من بعيد أشبه بصوت إنساني يصدح كي يتذكر أين سمع الأسطورة، فإذا هو يبلغ –دون قصد– ضفة النهر الصغير الذي يشكل حدود الباحة.

هبط كوفرين الممر المؤدي إلى حافة الماء خلال بعض الجذور العارية، فأجفلت لدى اقترابه طيور الشنقب، وأطلقت أوزتان بريتان ساقيهما للريح... كانت أشعة الشمس المتطفلة تتضوأ بعد، هنا وهناك، على أشجار الصنوبر القاتمة، بينما المياه القليلة قد اكتسى سطحها بعتمة القيلولة العتيدة... واجتاز كوفرين التيار، وهو يقفز فوق الحجارة المسطحة، حتى إذا بلغ الضفة الثانية منه ترامى أمام عينيه حقل واسع تغطيه سنابل الجاودار الفتي الذي لم يثمر بعد، بينما خلال الفضاء أمامه –على مرمى البصر– من أي مسكن بشري أو نفس إنسانية حية، حتى ليخال المرء أن الدرب ستؤدي به بالضرورة، فيما لو

تبعها، إلى المناطق العجيبة المكتنفة بالألغاز، التي لم يطرقها إنسان قط، والتي تنبسط هناك في الغرب حيث غربت الشمس في التو واللحظة، وحيث ما زال الغسق يلتهب، شديد النيران مهيب المشهد.

فكر كوفرين، وهو يسير على طول الدرب الضيقة: ما أوسع هذا المشهد! ما أشد سكونه وحريته! ليخال لي أن العالم بأسره يتطلع إلي من مخبأ يختفي فيه عن العيان، ويقف لي بالمرصاد ينتظر مني أن أفهمه وأدرك غوامضه ومعانيه!

واجتاحت موجة لطيفة حقل الجاودار، وراح نسيم المساء العليل يهب لطيفاً عذباً على رأس كوفرين العاري. ولم تمضِ دقيقة حتى هب النسيم من جديد، ولكن أعنف منه قبلاً وأقوى، فاهتز الجاودار له وترنح، بينما تلاحق من الوراء همس أشجار الصنوبر أصم اللحن مخنوقاً... توقف كوفرين عن المسير في دهشة وذهول عظيمين: هذا عمود أسود ضخم ينتصب في الأفق أمام عينيه، يصل الأرض بالسماء العريضة، أشبه ما يكون بإعصار هوائي، أو بسيل من الماء يتدفق من العلاء وينهمر... ولم تك حدوده واضحة، لكن كوفرين أدرك منذ الوهلة الأولى أنه غير ثابت في مكانه، بل هو يتحرك بسرعة تفوق الإدراك في اتجاهه، وحجمه يتناقص بمقدار ما يقترب منه، بينما يتّضح شكله وترتسم في الهواء بكل جلاء... وارتمى كوفرين جانباً على الرغم منه، بحركة غير إرادية، كي يفسح له الطريق... هذا راهب متشح بثياب سوداء، أشيب الشعر، أسود الحاجبين، تتصالب ذراعاه فوق صدره، يمرّ من أمامه في اندفاع عنيف، وقدماه العاريتان تعلوان الأرض فلا تمسان التربة الباردة... وعندما ابتعد عن كوفرين قرابة عشرين ياردة، التفت إليه، وأشار برأسه محيياً وابتسم في لطف، ولكن في خبث في الوقت نفسه... كان محياه شاحباً ناهلاً... وبعد أن مرّ بجانب كوفرين أخذ ينمو من جديد ويعظم، وطار عبر النهر، واصطدم بضفته الموحلة وبأشجار الصنوبر دون صوت مسموع، ومر من خلالها، ثم تلاشى كما يتلاشى الدخان في الفضاء العريض...

تمتم كوفرين: أرأيت؟ إن الأسطورة، على الرغم من كل شيء، لحقيقة واقعة!

ولم يحاول تفسير هذه الظاهرة الغريبة، بل عاد أدراجه إلى الدار، يغمره اضطراب لذيذ، راضياً بأنه قد رأى عن قرب وبكل وضوح، ثياب الراهب السوداء ووجهه وعينيه أيضاً.

كان الزوار يتنزهون في الباحة والحديقة بهدوء وسلام، والموسيقا ما برحت تتصاعد في أرجاء الدار... إن أحداً سواه لم يشاهد الراهب الأسود... وأحس رغبة عنيفة في أن يقص على تانيا وييجور سيميونوفيتش ما رآه، ولكنه خشي إنْ فعل ذلك أن يحسباه مختلط العقل... حزم أمره على الاحتفاظ بالصمت والسكون... وطفق يقهقه بصوت مرتفع، ويغني، ويرقص «المازوركا»، وهو في أحسن حالاته النفسية... أما الضيوف وتانيا فقد وجدوا في وجهه تعبيراً غريباً غير مألوف من الإشراق والإلهام، وقدروا أنه شخص يثير الاهتمام حقاً وفعلاً.

مضى كوفرين، بعدما انتهى العشاء وغدا الزوار كل إلى داره، إلى غرفته الخاصة، واستلقى على الأريكة، وفي نيته أن يفكر في الراهب الأسود... ولكن، سرعان ما لحقت به تانيا بعد دقائق معدودات...

قالت، وهي تناوله رزمة من المجلات والصحف: خذ، يا أندريوشا! هذه مقالات والدي إذا أردت أن تقرأها... إنها مقالات عظيمة، فهو يكتب بصورة رائعة جداً.

فقال بيجور سيميونوفيتش، وهو يدلف إلى الغرفة وراءها، وعلى شفتيه ابتسامة مكرهة: بصورة رائعة؟ يا للكلمة الطنانة! أرجو ألا تصغي إليها!... أو أن اقرأ هذه المقالات إن كنت تريد أن تنام فقط -فهي منوّم رائع.

فعادت تانيا تقول في قناعة راسخة: إنها مقالات بديعة في رأيي... اقرأها، يا أندريوشا، واقنع والدي أن يكثر من الكتابة. إنه يستطيع أن يكتب موسوعة كاملة في فن العناية بالحدائق والبساتين.

فضحك بيجور سيميونوفيتش، وتضرجت وجنتاه خجلاً، وراح يتمتم متلعثماً بما يقوله عادة كل كاتب اضطرب وارتبك... وأخيراً ألقى السلاح واستسلم...

جمجم، وهو يلتقط الأوراق بيدين راعشتين:

– إذا أردت أن تقرأها، فابدأ أولاً بهذه الدراسة التي وضعها جوشي، وبهذه المقالات الروسية القصيرة أيضاً، وإلا فإنك لن تفهم مما ستقرأ شيئاً، إذ لا بدّ لك -قبل أن تقرأ نقدي- من أن تلمّ بالأصل الذي أردُّ عليه... ولكن ذلك لن يثير اهتمامك أبداً... هراء... وها وقت النوم قد حان!

خرجت تانيا من الغرفة، بينما جلس بيجور سيميونوفيتش على حافة الأريكة، وتنهد بصوت عال. ثم طفق يقول بعد صمت طويل: آه، يا صديقي العزيز... وهكذا ترى، يا عزيزي الأستاذ، أنني أكتب المقالات، وأشترك في المعارض، وأنال بعض الأوسمة في كثير من الأحيان... والناس يقولون في كل مكان: إن لدى بيسوتزكي تفاحاً يعادل الرأس حجماً... أو أيضاً: إن بيسوتزكي قد أصاب ثروة طائلة من وراء حدائقه... وبكلمة واحدة: «إن كوتشوبلي كثير الثراء، عظيم المجد»(١)...

ولكنني أود أن أسألك إلام سيصير كل هذا؟ فالحدائق -ولا جدال في ذلك- رائعة جداً... إنها حدائق نموذجية في الحقيقة... وهي ليست، باختصار، حدائق بكل معنى الكلمة، بل مؤسسة كاملة ذات أهمية سياسية عظمى، لأنها خطوة جريئة نحو عصر جديد في الزراعة والصناعة الروسيتين...

ولكن، ما الغاية من ذلك؟ ما الهدف الأخير؟

– يخيّل إليّ أن ما حققته يجيب من تلقاء نفسه عن هذا السؤال!

– ليس هذا ما أعنيه، بل أريد بالأحرى أن أعرف مصير هذه الحدائق بعد وفاتي! إن كل الدلائل تشير –إذا ما استمرت الأمور على ما هي عليه الآن– إنها لن تعيش شهراً واحداً بعدي... إن سرَّ نجاحي لا يقوم –في واقع الأمر– في أن الحديقة كبيرة جداً، وأن العمال كثرة، بل بالأحرى في أنني أحب العمل– هل تفهم؟ لعلي أحبه أكثر مما أحب نفسي... انظر إليَّ فقط! أنا أعمل منذ الصباح حتى المساء، وأنجز كل شيء بيديَّ هاتين... التطعيم، وتقليم الشجر، والغرس... كل هذا أنا الذي أقوم به، وعندما يقدم لي أحد العمال المعونة تجتاحني الغيرة، فأغتاظ حتى أصبح فظاً قاسياً... إن سرَّ نجاحي بأسره يكمن في الحب، في عين المعلم الحادة، وفي يديه العارفتين، وفي شعوري العميق عندما أمضي إلى زيارة أحد الأصدقاء وأقضي عنده نصف ساعة من الزمن، بأنني قد خلفت قلبي ورائي، وأن شيئاً ما يعوزني– إنني إذن في خشية دائمة من أن يكون بعض السوء قد حلّ بالحديقة... والآن، فلنفرض أنني توفيت غداً، فمن سيخلفني في كل هذا؟ من يقوم بالعمل؟ أهو رئيس الجنّانين؟ أم العمال؟ ألا فاعلم أن كل ما يثقل عليّ ويشغلني في الوقت الحاضر هو يقيني أن ألدَّ أعدائي ليس الأرنب البري، أو النملة، أو الجليد، أو الطير، بل يداً غريبة ليس غير.

قال كوفرين ضاحكاً: ولكن، ماذا عن تانيا؟ إنها بكل تأكيد ليست أكثر خطراً من الأرنب البري؟... إنها تحب العمل وتعرفه حق المعرفة.

– نعم. إن تانيا تحبه وتعرفه حق المعرفة. ولو أن الحدائق ستؤول إليها بعد موتي، فتصبح هي السيدة الوحيدة عليها، فلست أرغب في أكثر من هذا –ولكن لنفرض، لا سمح الله، أنها تزوجت؟

وهنا خفض بيجور سيميونوفيتش صوته حتى أصبح همساً فقط، وراح يتطلع بعينين مذعورتين إلى كوفرين:

– ذلك هو البلاء! قد تتزوج، وتنجب أطفالاً، ولا تعود تجد الوقت الكافي للاعتناء بالحدائق، وفي هذا وحده ما يكفي من السوء! ولكن ما أخافه أكثر من كل شيء آخر هو احتمال زواجها من مبذّر سيظل أبداً في حاجة إلى المال، فيؤجر الحدائق لبعض التجار، وعندها يذهب كل شيء إلى الشيطان منذ السنة الأولى... إن النساء، في مثل هذه القضايا، بلاء من عند الله!...

وصعّد بيجور سيميونوفيتش تنهدة عميقة، ولجأ إلى الصمت بضعة دقائق ثم عاد يقول: لعلك تستطيع أن تسمي ذلك أنانية من جانبي، ولكني لا أريد أن تتزوج تانيا... إني خائف! هل رأيت ذلك المتأنق الذي جاء بمزماره يثير الضوضاء في بيتي؟ إني أعرف أن تانيا لن تتزوّجه قط، وعلى الرغم من ذلك فأنا لا أحتمل رؤيته... وباختصار يا صاحِ، فإني غريب الأطوار جداً... وإني لأعلم هذا!...

ونهض بيجور سيميونوفيتش، وعاد يذرع أرض الغرفة غدوة ورواحاً في اضطراب شديد... كان من الواضح أنه يريد أن يقول شيئاً يعلق عليه أهمية قصوى، ولكنه لا يعرف كيف يبدأ ذلك.

قال، وهو يضع يديه في جيبه: إني أحبك بإخلاص عظيم، بحيث لا أستطيع إلا أن أحدثك بكل صراحة... إني أقول رأيي في كل القضايا الدقيقة، ولا أحب المراوغة والادعاء، ولذا فإني أخبرك دون مواربة أنك الإنسان الوحيد الذي لا أخاف من زواج تانيا منه... فأنت رجل ذكي، كبير القلب، لن ترضى بانهيار عمل حياتي واندثاره... والأكثر من ذلك إني أحبك وكأنك ولدي... وإني فخور بك... وهكذا، فإذا ما انتهى الأمر بك وتانيا... إلى قصة غرام... فلسوف أكون مسروراً جداً وسعيداً للغاية... وهأنذا أقول لك ذلك دون مواربة، دون أي خجل على الإطلاق، كما يليق بإنسان صادق شريف.

تبسم كوفرين، أما بيجور سيميونوفيتش ففتح الباب، وهمَّ بمغادرة الغرفة، ولكنه توقف فجأة على العتبة، وأضاف: وإذا ما رزقت وتانيا طفلاً، فسوف أجعل منه اختصاصياً في زراعة الحدائق... ولكن ذلك خيال باطل ليس غير... طابت ليلتك!

وحين خلا كوفرين لنفسه، اضطجع في وضع مريح، وتناول مقالات مضيفه... كان عنوان المقال الأول: «الزراعة المتوسطة»، وعنوان المقال الثاني: «بضعة كلمات جواباً على ملاحظات السيد... المتعلقة بتهيئة تربة الحديقة الجديدة»، أما الثالث فكان عنوانه: «في التطعيم أيضاً»... وكذلك كانت موضوعات المقالات الأخرى مماثلة أيضاً لأغراض المقالات السابقة. ولكنها جميعاً كانت تطفح بالاستياء والاضطراب والتهجم، بل إن تلك الصفحة التي تحمل مثل هذا العنوان المسالم اللطيف: «أشجار التفاح الروسية»، كانت تفوح أيضاً بالنقمة والغضب... ولقد بدأها بيجور سيميونوفيتش بهذه الكلمات اللاتينية «Audi alteram partem»(٢)، وختمها بهذه الكلمات اللاتينية أيضاً «Sapienti sat»(٣)، بينما راح يتدفق، بين هذين التعبيرين العلميين، تيار من الكلمات الجارحة الموجهة ضد «الجهل المتخفي في ثياب المعرفة، والذي يتحلى به اختصاصيو زراعة الحدائق عندنا، هؤلاء الذين يشاهدون الطبيعة من مقاعدهم الأكاديمية»، وضد السيد جوشي «الذي تقوم شهرته على إعجاب عامة الناس وبعض الهواة فقط»... وأخيراً وقع كوفرين على جملة لا محل لها في الموضوع أبداً، تعبر في لوم شديد عن أسف الكاتب لأنه لم يعد مشروعاً بعد اليوم جلد الفلاحين الذين يضبطون وهم يسرقون الثمار ويسيئون إلى الأشجار ويفسدونها.

فكر كوفرين: هذا عمل جيد، صحي، مدهش، ومع ذلك فليس في هذه المقالات إلا النقمة والتهجم واللوم والقتال بالخناجر. واعتقد أن الأمر كذلك في كل مكان. فرجال الفكر، في مختلف الميادين، عصبيون وضحايا مثل هذه الحساسية المبالغ فيها. أعتقد أن ذلك لا بدّ أن يكون كذلك بالضرورة.

وطفق يفكر في تانيا، المغتبطة حتى درجة بعيدة بمقالات والدها، ثم في بيجور سيميونوفيتش أيضاً... وبدت له تانيا الصغيرة القد، الشاحبة اللون، الرشيقة الحركة، بترقوتيها البارزتين، وعينيها السوداوين

الواسعتيـن الذكيتيـن اللتين تلوحــان وكأنهما تفتشان دوماً عن شيء ما، وخطواتهـا القصيرة المتسارعة التـي استعارتهـا من بيجـور سيميونوفيتش... إنها مغرمـة بـالحديث، مولعة بـالمناقشـة، ترافق حتى أتفه الكلمات بالإشارات والحركات على الدوام... إنها عصبية –لا ريب إنها عصبية حتى الدرجة القصوى.

وشـرع كوفريـن بـالقراءة مـن جديد، ولكنه لم يـعِ شيئاً مما يقـرأ، فرمى بكتبه جانبـاً في ضيق وتبرم... إن الانفعال اللذيذ الذي غمره وهو يرقص «المازوركا» ويصغي إلى الموسيقا، ما برح يتملكه حتى الآن ويثير فيه ما لا يحصى من الأفكار المختلفة... وأخذ يتمشى في الغرفة وقد خطر له بغتة أنه إذا كان الشخص الوحيد الذي شاهد ذلك الراهب الغريب غير الطبيعي، فهو مريض حتماً، مريض حتى يشكو أهلاساً وتخيلات غريبة... وألقت هذه الفكرة الذعر في قلبه، ولكن الذعر لم يطل كثيراً...

قال في نفسه: ما دمت على خير حال، وما دمت لا أسيء إلى أي إنسان كان، فلا خطر من تخيلاتي إذن...

طمأنته الفكرة، فاستعاد هدوءه وفرحه، ومن ثم جلس على الأريكة من جديد... وأخذ رأسه بين يديه، يحـاول كبـح جماح ذلك الفرح الغامض الذي ملأ كينونته بأسرهـا... وبعدئذ غدا يتمشى جيئة وذهوباً فـي الغرفـة مرة أخرى مدة دقيقـة واحدة، ومن ثم عاد إلـى طاولة عمله. ولكن الأفـكار التي قرأها في الكتب لم تعد تروق له أو ترضيه أبداً. إنه يحنُّ إلى شيء فسيح، لا متناهٍ، يحير الألباب ويذهل الفكر...

نضـد عنـه ثيابه قرب الصبـاح، ومضى بتثاقل –مرغماً– إلى فراشه، وهو يفكر في أن الراحة هي أفضـل مـا يفعله بعد ذلك اليوم المملوء بالانفعالات. وعندما سمـع أخيراً بيجور سيميونوفيتش يغدو إلى عمله في الحديقة، قرع الجرس، وأمر الخادم أن يجلب له شيئاً من الخمر، جرع منه بضعة أكواب أظلم من بعدها وعيه، فغرق في نوم عميق...

– ٤ –

كان بيجور سيميونوفيتش وتانيا يتخاصمان كثيراً، فيتبادلان عندئذ بعض الكلمات الجارحة... وقد ثارت نقمتها في ذلك الصباح أيضاً، فانفجرت تانيا تبكي، ثم ولت الأدبار إلى غرفتها، ولم تخرج منهـا لا في موعد الغداء، ولا ساعة تناول الشـاي... أما بيجور سيميونوفيتش فقد أخذ، في أول الأمر، يتجـول فـي أنحاء الدار بخطوات مهيبـة وجلال عظيم، وكأنه يريد أن يفهـم الجميع أنه يضع العدالة والنظـام فـوق سائر قضايا الحياة على الإطلاق. ولكنه لم يستطـع أن يحتفظ بذلك المظهر طويلاً، بل سرعان ما انهارت عزائمه، فراح يهيم في أرجاء الباحة حزيناً، ويتنهد هـاتفاً بين الفينة والفينة.

– آه، يا إلهي! يا إلهي!

ولـم يطعم شيئـاً عند الظهيرة... وأخيراً قـرع بلطف، معذب الضمير متألمـاً، الباب المغلق ونـادى بصوت يرنّ الحياء في نبراته: تانيا! تانيا!

فأتاه من خلال الباب صوت خافت، يغص بـالدموع، يقول في كثير من الحزم على الرغم من ذلك: دعني لوحدي!... أتوسل إليك.

وقـد أثـرت تعاسة الوالـد والابنة في سـكان البيت جميعاً، وحتـى في العمال الذيـن يشتغلون في الحديقة... وكان كوفرين، كعادته، منهمكاً في أعماله الخطيرة المهمة، ولكن الأمر انتهى به أخيراً – هو أيضاً – إلى الشعور بالتعب والضيق. فحزم أمره على التوسط فيما بينهما، وتبديد تلك السحابة الطارئة التي عكرت صفو البيت بأسره. وهكذا قرع باب تانيا قبيل هبوط المساء، فسمحت له بالدخول...

شرع يقول في شيء من السخرية: تعالي، تعالي، يا للعار!

ولكنه سرعان ما راح يشخص، في دهشة وذهول، إلى دموعها الغزيرة المنهمرة، وإلى وجهها المغموم الذي لطخته بقع حمر قانية اللون، ومن ثم أضاف: ذلك جدّي حتى هذه الدرجة إذن؟ حسناً، حسناً!

فقالت، وقد طفر من عينيها الكبيرتين سيل من العبرات: لو أنك تدري فقط كم يعذبني!

واسترسلت، وهي تحرك يديها: لقد طفح الكيل في الحقيقة! وأنا لم أقل له شيئاً مع ذلك... قلت إن الحاجة لا تمسّ إلـى الاحتفاظ بعمال لا ضرورة لهم إذا ما... إذا ما كنا نستطيع أن نستأجر عمالاً مياومين... أنت تدري أن العمال لم يشتغلوا شيئاً طوال الأسبوع. وأنا... أنا لم أقل له سوى هذا، فإذا هو يزمجر في وجهي، ويتفوّه بأشياء عديدة في حقي... بأشياء مسيئة... مهينة للغاية! وكل ذلك دون سبب. لماذا؟

فقال كوفرين، وهو يسوّي بيده شعرها الأشعث: لا عليك! لقد نلت حصتك من التعنيف ومن البكاء، وهذا يكفي بكل تأكيد... إنك لا تستطيعين الاستمرار في ذلك إلى الأبد... لست محقة في هذا... وخاصة ما دمت تعرفين أنه يحبك حباً لا نهاية له، يشبه العبادة.

فقالـت تانيـا، وهـي تنشج وتئـن دون انقطاع: لقـد أفسد حياتي كلهـا! إني لم أسمع منـه أبداً إلا الإهانـات والشتائـم... إنه يعدّني شيئاً تافهاً لا حاجة إليه في منزله الخاص. فليكن!... فلسوف يكون السبب في ذلك! سوف أترك هذا المكان غداً، وأشتغل كعاملة في البرق... فليكن!

– تعالي، تعالي! كفى بكاء، يا تانيا، فهذا لا يفيدك شيئاً... إن كليكما عصبيان متهوران، وكليكما على ضلال أيضاً... تعالي، وسوف أصلح بينكما!

كان كوفريـن يتحـدث بلطـف وبصورة مقنعة، بينمـا تانيا لا تكف عن البـكاء لحظة واحدة، وهي تهـز كتفيها وتحـرك يديها وكأن كارثة حقيقية فادحة قد حلت بها، فـلا يفعل ذلك إلا مضاعفة أسف

كوفريـن لشدة ما كان سبـب حزنها ضئيلاً تافهاً، وعذابها شديداً وعميقاً على الرغم من ذلك. أي هنية تافهة تكفي كي تجعل هذه المخلوقة الصغيرة تعسة النهار بطوله، بله الحياة بكاملها حسب تعبيرها نفسه! وخطر له، وهو يواسي تانيا ويطيب خاطرها، إن هذه الفتاة ووالدها هما الكائنان الوحيدان في هذا الوجود اللذان يحبانه كقريب لهما، وأنه لولاهما لكانت حياته –هو الذي فقد عطف الأبوة، وحنان الأمومة منذ طفولته المبكرة– خالية من معنى الحنان، فارغة من ذلك الحب الساذج والمجرد عن كل غاية، ذلك الحب الذي لا نضمره إلا نحو أولئك الذين يصلنا بهم رباط الدم وأواصر القربى ليس غير...

وأحس أيضاً أن أعصابـه المرهقة، المتوترة بشدة، المتنبهة أبـداً، تستجيب لأعصاب هذه الطفلة الباكيـة المرتجفـة، مثلمـا يستجيب الحديد لنـداء المغناطيسـ... وأحس أيضاً أنه لـن يستطيع قط أن يحـب امرأة قوية البنية، مضرجة الوجنتين، بينما هذه الفتاة الشاحبة اللون، الضعيفة البنية، الشقية والبائسة، تلائم أهواءه تماماً، وتلبي رغباته وعواطفه من دون سائر النساء...

وغمـرة السـرور، وهو يمسح على شعرهـا وكتفيها بكل طيبة خاطر، ويضغـط على يدهـا، ويجفف الدموع عن خديهـا... وكفّت أخيراً عن البكاء، ولكنها ظلت طويلاً تشكو والدهـا وتتذمر من حياتها التي لا تطـاق في المنـزل، متوسلة إلى كوفرين أن يحـاول فهم حـالتهـا... ثم أخـذت –شيئاً فشيئاً– تبتسم، وتأسف لأن الله قد عاقبها بمثل هذا الطبع النزق الشرير... وفي النهاية، شرعت تضحك عالياً، وتنعت نفسها بالمجنونة، ثم اندفعت خارج الغرفة عدواً...

ومضـى كوفرين، بعد لحظات قليلة، إلـى الحديقة... كان بيجـور سيميونوفيتش وتانيا يتنزهـان جنبـاً إلـى جنب على طول الممـرات الصغيرة، وكأن شيئـاً لم يحدث بينهمـا، يطعمـان خبز الجاودار والملح، فقد كانا جائعين بصورة مخوفة حقاً...

-٥-

خرج كوفرين إلى الباحة مغتبطاً بدوره كصانعٍ للسلام، واقتعد هناك دكة خشبية يتأمل الوجود مـن حولـه، فإذا فرقعـة عجلات عربة تقتـرب من الدار، مختلطـة بصوت امرأة تضحـك، تطرق سمعه وتنزعـه من تأملاتـه... إنهم الضيوف من جديد بكل تأكيد! وسقطت الظلال تترى على أرض الحديقة، ودفدفـت إليه مـن الدار أصداء العزف على الكمان، وبعض الألحـان الموسيقية يرددها صوت نسائي فـي نبرات مخفوضة تكاد ألا تسمع... فذكره ذلـك، دون سبب واضح، بالراهب الأسود... تُرى أي بلاد، أو أي كوكب، قد حلق من جديد ذلك الضلال الضوئي غير المعقول؟

ولـم يكـد يستعيـد في ذهنه تلك الأسطـورة، ويصوّر فـي مخيلته ذلك الشبح الأسـود الذي ظهر له فـي حقـل الجاودار، حتى رأى رجلاً متوسط القامة يقترب منه، قادمـاً من وراء أشجار الصنوبر التي تواجهه، وهو يسير دون أي ضوضاء، فلا تثير خطواته أدنى حفيف على الإطلاق... كان رأسه الأشيب عاريـاً، وهو يرتـدي ثوبـاً أسود، ويمشي حافـي القدمين وكأنه شحاذ معدم، يريـن بصورة بينة على محيـاه شحـوب كشحوب الموتى، تتخلله مجموعة من البقع السـود الواسعة... وراح هذا الحـاج، أو هذا المستعطـي، يـدب دون أدنـى صوت نحو الدكـة الخشبية، وهو يهـزّ رأسه بأدب جم؛ ثـم جلس عليها، فعرف فيه كوفرين الراهب الأسود!... وطفقا يتراشقان النظر مدّة وجيزة، وكوفرين يتطلع إليه بدهشة عظيمة، أما الراهب فيرمقه بلطف كثير، مثله في المرة السابقة، وبشيء من الخبث في الوقت نفسه.

قـال كوفريـن: ولكنك سراب خـادع، فلم أنـت هنـا، وكيف تجلس في مكان واحـد؟ إن ذلك لا يتفق والخرافة.

فأجاب الراهب بصوت مخفوض، وقد استدار نحو كوفرين: إن ذلك سواء! الأسطورة، والسراب، وأنا نفسي –كل هذه أمور من صنع خيالك المضطرب. أنا شبح ليس غير!

فسأل كوفرين: أيعني هذا أنك لا توجد؟

فأجـاب الراهـب، وعلى شفتيه ابتسامة ضئيلـة: ظن ما تشاء... فأنا موجود فـي مخيلتك... ولكن مخيلتك جزء من الطبيعة... فأنا موجود إذن في الطبيعة أيضاً!

قال كوفرين: إن لك وجهاً ذكياً متوقداً –ليخيل إليّ أنك قد حييت في الحقيقة أكثر من ألف سنة... أنـا لـم أكن أدري أن مخيلتـي قـادرة على خلق مثل هـذا الحـادث! لم تتطلع إليّ بـكل هذا الشغف؟ هل أعجبتك؟

نعـم! لأنـك واحد مـن القلائل الـذي يمكن أن نسميهـم بحق مختاري الـرب... إنك تخـدم الحقيقة الأبديـة... وأفـكارك، ورغباتـك، وعلومـك المدهشة، وحياتـك بأسرهـا، تحمـل طابـع الألوهيـة، لأنها موقوفة على الحكمة والجمال... وبكلام آخر، فهي موقوفة على ما هو أبدي!...

– أنت تقول: الحقيقة الأبدية! ولكن، هل تقع الحقيقة الأبدية تحت إدراك البشر، وهل هي ضرورية لهم إن لم يكن هناك حياة أبدية؟

فقال الراهب: إن هناك لحياة أبدية!

– إذن، فأنت تؤمن بخلود البشر؟

– بـكل تأكيـد! إن مستقبـلاً عظيماً جميلاً ينتظركم أيها البشر!... وكلمـا تضاعف عدد الرجال من أمثالـك في هـذا العالم، كلما تحقق ذلك المستقبل في وقت أبكـر! إن الإنسانية كانت تصبح عدماً من دونكم، أنتم خدَّام المبادئ العليا، الذين تعيشون بحرية تامة ووجدان مطلق! كان لا بد لهذه الإنسانية،

المتطـورة حسب القوانين الطبيعية، من انتظار نهايـة تاريخها الأرضي إذن... ولكنكم، أنتم، تعجّلون في بلوغها مملكة الحقيقة الأبدية ببضعة آلاف من السنوات –وفي هذا تقوم جدارتكم الرفيعة... أنكم تجسدون في كينونتكم نعمة الله المرسلة إلى البشر!...

وسأل كوفرين: وما هدف الحياة الأبدية؟

– إنه هدف كل حياة –الغبطة! فالغبطة الحقيقية تقوم في المعرفة، والحياة الأبدية تمثل ينابيع من المعرفة لا تحصى ولا تنضب أبداً... وبهذا المعنى قد قيل: «في بيت أبي مساكن عديدة»...

فقال كوفرين، وهو يفرك يديه جذلاً:

– إنك لا تستطيع أن تقدر مبلغ فرحي بالإصغاء إليك!

– إني لسعيد بذلك.

– وعلـى الرغـم من هذا، فإني علـى يقين من أن الارتيـاب في حقيقتك سـوف يعذبني ويرهقني عندمـا تغادرني بعد قليـل... فأنت شبح، أنت تخيُّل ليس غير... ولكن، أيعنـي هذا أنني مؤوَف حكمياً، إنني لست في حالة طبيعية؟

– ومـاذا فـي ذلك؟ يجب ألا يشغلك هذا! أنت مريض لأنـك أجهدت قواك كثيراً، لأنك أفنيت صحتك وقدمتهـا ذبيحـة للفكرة التـي تعمل في سبيلهـا... وعما قريب سـوف تضحي ليس بصحتك وحدها فحسب، بل بحياتك كلها أيضاً... ماذا عساك ترغب أكثر من ذلك؟ إن هذا أقصى ما تتوق إليه النفوس النبيلة التي تلقت موهبة من الله.

– ولكنني إذا كنت مريضاً حكيماً فكيف أستطيع أن أثق بنفسي؟

– ومـا أدراك أن سائـر العباقـرة الذيـن يثق العالم بأجمعـه بهم لم يتعرضـوا بدورهم لمثل هذه الرؤى؟ إن العبقرية، كما يحدثونك في هذه الأيام، لقريبة كل القرب من الجنون.... صدقني، إن الناس السليميـن والطبيعيين ليسوا في واقع الأمر إلا بشراً عاديـين... إنهم رعاع الناس... وإن المخاوف من النزاقـة العصبية ، والإجهاد، والاستحالة، لا يمكن أن تلقي الاضطراب جدياً إلا في قلوب أولئك الذين تقوم غاياتهم من الحياة في الحاضر وحده... وهؤلاء هم رعاع الناس...

– لقد كان مثل الرومان الأعلى «Mens sans in corpora sano»(٤)...

– إن كل مـا يقوله الرومـان والإغريق ليس بالضرورة صحيحـاً... إن الشغف، والتهلل، والحنين، والإشـراق، كل هذه الأمور التي تميز الشعراء، والأنبياء، وشهداء الفكر، عن البشر العاديين لا تتفق مع الحياة الحيوانية، يعني مع الصحة الحكيمة. إني أعود فأقول لك مرة أخرى: إذا أردت أن تكون سليماً وطبيعياً فاذهب مع الرعاع!

فقال كوفرين: ما أغرب أن تردد ما فكرت أنا فيه دوماً! ليخيل إليّ أنك راقبتني وأصغيت إلى أكثر أفكاري خفية... ولكن، دعك والحديث عني. ماذا تعني بهاتين الكلمتين: الحقيقة الأبدية؟

فلم يحر الراهب جواباً...

تطلع كوفرين إليه، ولكنه لم يستطع أن يميز محياه أبداً؛ وأظلمت ملامحه شيئاً فشيئاً؛ ثم تلاشت تماماً؛ واختفى رأسه وذراعاه؛ بينما شحب جسده واختلط بالمقعد الخشبي والقيلولة معاً حتى تلاشى نهائياً...

قال كوفرين ضاحكاً: لقد ذهب التخيل! ما أسوأ ذلك!

وعاد أدراجه إلى البيت نشيطاً سعيداً: إن ما أخبره الراهب الأسود به قد أطرى ليس محبة الذات عنده فحسب، بل روحه أيضاً وكل كينونته... أن يكون المرء مختاراً من الله؛ أن يكون خادماً للحقيقة الأبدية؛ أن يكون في صفوف أولئك الذين يعجّلون في جعل الإنسانية خليقة بمملكة السيد المسيح بآلاف من السنوات؛ أن يوفر عن البشرية آلاف السنين من النضال، من الخطيئة، ومن العذاب؛ أن يمنح هذه الفكرة كل شيء، الشباب، والقوة، والصحة جميعاً؛ أن يموت في سبيل سعادة المجموع ومصلحته –يا له من مثل أعلى، رائع وعظيم!... وعندما مرت في خاطره حياته السابقة، تلك الحياة النقية الطاهرة، الطافحة بالجهاد، عندما تذكر ما تعلمه وما علمه للآخرين، قرر أن الراهب لم يكن مغالياً أو مبالغاً في حديثه مطلقاً.

واجتازت تانيا الباحة متوجهة إليه ترحب به، وقد ارتدت ثوباً يختلف عن ذلك الذي رآها فيه آخر مرة...

صاحت: أنت هنا؟ لقد كنا نفتش عنك، نفتش...

ولكنها لم تكمل جملتها، بل سألته في دهشة، وهي تتطلع إلى وجهه المتورد المشرق، وإلى عينيه المغرورقتين بالدموع: ولكن ما بالك؟ لكم تبدو غريب الشكل، يا أندريوشا؟

فوضع كوفرين يده على كتفها، وقال: إنني راضٍ، يا تانيا! بل إنني أكثر من راضٍ... إنني سعيد! تانيا يا عزيزتي تانيا، إنك عزيزة علي بصورة لا يمكنني التعبير عنها!... تانيا، إنني سعيد، سعيد جداً!...

وقبّل كلتا يديها بحرارة، واسترسل يقول: لقد عشت أعظم لحظات حياتي بريقاً، وأكثرها مدعاة للدهشة، وأرفعها عن الأمور الأرضية... ولكنني لا أستطيع أن أطلعك على كل شيء... لأنك ستنعتينني إذن بالمجنون، أو ترفضين تصديقي... فلنتحدث عنك بالأحرى! إنني أحبك، يا تانيا! ولقد أحببتك منذ زمن طويل... أن تكوني قريبة مني، وأن ألقاك عشر مرات في اليوم، تلك أصبحت ضرورة قصوى بالنسبة إليّ... ولست أدري في الحقيقة كيف سأعيش من دونك عندما أذهب من هنا!...

فضحكت تانيا: لا! سوف تنسانا جميعاً في مدة يومين! إننا أناس لا ذكر لهم، أما أنت فرجل عظيم!

فقال: فلنتحدث بصورة جدية! سوف آخذك معي، يا تانيا! نعم، سوف تأتين... سوف تكونين لي!

فصاحت تانيا: ماذا؟

وجرَّبت أن تضحك ثانية، ولكن الضحك لم يواتها، بل بدت البقع الحمر على وجنتيها بدلاً من ذلك... راحت أنفاسها تتلاحق، وهي تحث الخطا في أرض الباحة، ولكن في غير اتجاه الدار...

قالت، وهي تضغط يديها وكأنها في يأس سحيق: إني لم أفكر... لم أفكر في ذلك... أبداً... أبداً لم أفكر... ولكن كوفرين أسرع وراءها، وتابع حديثه، متورد الوجه مشرق المحيا: إنني أرغب في حب يستولي عليَّ بكليتي! وهذا الحب لا يمكن أن يهبني إياه أحد سواك، يا تانيا! إنني سعيد! ما أسعدني!

غُلبت تانيا على أمرها، فانحنت، وتكورت على نفسها، وبدت وكأنها قد شاخت عشر سنوات على حين غرة... ولكن كوفرين وجدها جميلة، فصاح معبراً عن إشراقه وحماسته بصوت عال: ما أجملها!

-٦-

عندما علم بيجور سيمونوفيتش من كوفرين أن الصلات بينه وبين تانيا لم تنته في قصة غرام فحسب، بل إن زواجاً سوف يتلو ذلك عن قريب، راح يذرع أرض الغرفة من زاوية لأخرى وهو يحاول أن يخفي اضطرابه ويتغلب عليه... وأخذت يداه ترتعشان بشدة، بينما انتفخ عنقه وتضرج باللون القرمزي، حتى أصدر أوامره أخيراً بتهيئة عربته السريعة، ومن ثم غادر الدار لا يلوي على شيء... وعندما رأت تانيا إليه كيف انهال بالسوط على جياده ضرباً، وكيف دفع قبعته في رأسه بعنف حتى بلغت أذنيه، أدركت اضطرابه العنيف، والحالة النفسية الأليمة التي يعانيها، فأقفلت باب غرفتها على نفسها، وانخرطت في البكاء طوال النهار.

كان الإجاص والخوخ قد نضج في الحدائق، ولا بد لتعبئة مثل هذه البضائع الثقيلة وشحنها إلى موسكو في كثير من الانتباه والعناء والعناية... ولما كان الصيف حاراً وجافاً، فقد كان يتوجب سقي الأشجار في كل يوم تقريباً، الأمر الذي يكلف كثيراً من الزمن ومن القوة العاملة أيضاً. وبالإضافة إلى كل ذلك، فقد هاجمت الحدائق فلول من الديدان راح العمال، وحتى بيجور سيميونوفيتش وتانيا أيضاً، يسحقونها بأصابعهم، فيبعث ذلك في نفس كوفرين نفوراً عظيماً واشمئزازاً شديداً... ثم إن

هناك قضية الإشراف على طلبات الخريف والاستعداد لها أيضاً، وهذا أمر يتطلب كثيراً من المراسلات والاتصالات... وفي أشد الأوقات حرجاً، عندما كان يبدو أن أحداً لا يجد لحظة واحدة من الفراغ، بوشر العمل في الحقول، الأمر الذي حرم الحدائق من نصف العمال تقريباً... وكان بيجور سيميونوفيتش يعدو، وقد أحرقته الشمس كثيراً، وانتابه اضطراب شديد، واجتاحه قلق لا حدود له، إلى الحديقة تارة، وإلى الحقول تارة أخرى، ويصيح في كل حين قائلاً إنهم يمزقونه إرباً إرباً، وإنه سوف يطلق رصاصة في دماغه كي يجد الهدوء والراحة أخيراً.

ثم كان همّ جهاز تانيا الذي كان آل بيسوتزكي يعلقون عليه أهمية عظمى... كان يبدو أن المنزل بأسره قد انقلب عاليه سافله مع ضوضاء المقصات التي لا تنتهي، وخرير آلات الخياطة، ورائحة المكواة ودخانها، وأهواء الخيّاطة، وهي سيدة عصبية المزاج، نزقة الطباع كثيراً... وكي يزداد الطين بلة، كان الضيوف يردون يومياً، وكان لا بدّ من تسلية هؤلاء الضيوف، وإطعامهم، وتهيئة المضاجع لهم كي يقضوا الليل... وعلى الرغم من ذلك كله فقد كان العمل والقلق معاً ينقضيان سريعاً، دون أن ينتبه أحد إليهما، في سحابة كثيفة من ضباب الفرح والسرور. وكانت تانيا تخال أن الحب والسعادة قد سقطا عليها على حين غرة، على الرغم من يقينها –منذ سنتها الرابعة عشرة– أن كوفرين لن يتزوج سواها مطلقاً... كانت أبداً في حال من الدهشة والشك والإنكار في صميم نفسها، تجتاحها تارة موجة عظيمة من الغبطة حتى لتتوق إلى التحليق في السحب العالية كي ترفع صلواتها إلى الله، ثم لا تلبث بعد قليل أن تتذكر أنها ستغادر في آب المقبل عش طفولتها، وتهجر أباها؛ أو يتملكها ذعر شديد مفاجئ كلما فكرت –والله وحده يدري لماذا– إنها فتاة تافهة، عديمة الأهمية، غير جديرة برجل عظيم مثل كوفرين... وعندئذ كانت تسرع إلى غرفتها، وتغلق الباب عليها، وتبكي بمرارة طوال ساعات عديدة... وفي حضور الضيوف، كانت تتطلع إلى كوفرين فتراه رجلاً جميلاً للغاية، وتجد أن سائر النساء يحببنه ويحسدنها عليه... وفي مثل هذه اللحظات كان قلبها يطفح سعادة وفخراً، وكأنها قد استولت على العالم أجمع وانتصرت عليه... ولكن أوصالها كانت ترتجف غيرة إذا ما رأته يبتسم لأي امرأة أخرى، فتغدو إلى غرفتها –وهناك الدموع مرة أخرى!... كانت هذه المشاعر الجديدة تتملكها بكليتها، فتساعد أباها بصورة آلية، دون أن تلاحظ الثمار، أو الديدان، أو العمال، أو الزمن كيف يمرّ دون أن تشعر بمروره.

وكان بيجور سيميونوفيتش في مثل حالتها الفكرية أيضاً، يعمل منذ الصباح حتى الليل دون كلل، ويطير عبر الحدائق عدواً، ويفقد هدوءه ورباطة جأشه في كل لحظة لأتفه الأسباب... ولكنه كان مأخوذاً، طوال الوقت، يرتع أبداً في حالة سحرية حقاً، حتى لتقول إن إنسانين يكمنان في جسده

متين البنيان: أولهما بيجور سيميونوفيتش الحقيقي الذي يجن ويثور عندما يحدثه رئيس الجنانين إيفان كارلوفيتش عن خطيئة ارتكبها أحد العمال، أو إساءة لحقت ببقعة ما من الحدائق، فيروح يشد شعره وينتفه نتفاً في يأس وقنوط؛ وثانيهما بيجور سيميونوفيتش غير الحقيقي، وهو رجل عجوز نصف سكران، يتوقف عن الكلام قبل أن ينتهي من الموضوع الذي يتحدث فيه، ويطبق على البستاني من كتفه، ويصيح به: تستطيع أن تقول ما تشاء، ولكن الدم أكثف من الماء بكل تأكيد. لقد كانت أمه امرأة مدهشة، أكثر النساء نبلاً وذكاءً على الإطلاق... وكان مجرد النظر في وجهها الطيب، الطاهر، الصريح، الملائكي، يبعث في النفس لذة لا تساويها لذة... كانت تصوّر بصورة رائعة، وتنظم الشعر، وتتحدث خمس لغات أجنبية، وتغني... يا لها من مسكينة! أراح الله نفسها في جنانه، لقد ماتت مسلولة...

ويتنهد بيجور سيميونوفيتش غير الحقيقي، ثم يتابع بعد لحظة من الصمت: عندما كان صبياً ينمو ويتطور نحو الرجولة في بيتي، كان وجهه أيضاً صريحاً ملائكياً، طيباً... كانت نظراته، وحركاته، لطيفة رشيقة مثل نظرات أمه وحركاتها وكلماتها تماماً!... وذكاؤه! إنه لم يبلغ مرتبة الأستاذ هكذا... ولكن، انتظر فقط يا إيفان كارلوفيتش، ولسوف ترى إلامَ سيؤول بعد عشرة أعوام... لسوف يتجاوز كل حدود!

وهنا يتذكر بيجور سيميونوفيتش الحقيقي نفسه، فيمسك رأسه بيديه ويروح يزمجر: يا للشياطين! لقد حلت بي الكارثة! لقد اندثرت، لقد تلفت... لقد اندثرت الحدائق! لقد تلفت الحدائق!

وكان كوفرين يعمل بمثل حمياه السابقة، ولا ينتبه مطلقاً إلى الضوضاء والفوضى اللتين تحيطان به... إن الحب لم يفعل إلا سكب الزيت على لهيب حمياه. كان يعود إلى جناحه، بعد كل لقاء مع تانيا، يتهلل سعادة وغبطة، ويرتمي على كتبه ومخطوطاته بالحماسة نفسها التي كان يقبل بها قبل لحظات فتاته ويحدثها عن حبه وهيامه... إن ما أخبره الراهب الأسود به عن اختياره من قبل الله، وعن الحقيقة الأبدية، وعن مستقبل الإنسانية المجيد، قد أضفى على عمله بأسره معنى خاصاً غير مألوف، وملأ نفسه بكبرياء وعيه لعظمته الخاصة... كان يلتقي بالراهب مرة أو مرتين كل أسبوع، إما في الحديقة وإمّا في الدار، ويتحدث إليه طوال ساعات عديدة... ولم يكن هذا يخيفه، بل كان يغرقه على العكس في موجة عاتية من الإشراق والغبطة، لأنه قد أصبح الآن على يقين تام من أن مثل هذه الرؤى لا تزور إلا المختارين والممتازين والمتفوقين من البشر، هؤلاء الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الأفكار العظيمة التي يعتنقونها.

وفي ذات يوم، ظهر الراهب الأسود أثناء العشاء، وجلس بالقرب من النافذة في قاعة الطعام، فاغتبط كوفرين بذلك كثيراً، وحوّل دفة الحديث مع بيجور سيميونوفيتش وتانيا في اتجاه يمكن أن يثير اهتمام الراهب...

وكان الزائر يرهف سمعه، ويشير برأسه مشجعاً ملاطفاً، بينما بيجور سيميونوفيتش وتانيا يبتسمان في بهجة وغبطة، دون أن يرتابا في أن كوفرين لا يتوجه إليهما بالحديث، بل يتوجه بالأحرى إلى تخيله... وهكذا انقضى الصوم الكبير دون أن يحسوا به مطلقاً. ومن ثم كان الإكليل الذي احتفل به، حسب رغبة بيجور سيميونوفيتش، «بطنين عظيم»، يعني بأعياد سخيفة لا معنى لها استمرت طوال يومين كاملين... ولقد أنفق بيجور سيميونوفيتش ثلاثة آلاف من الروبلات على الطعام والشراب. ولكن أحداً من الضيوف لم يتذوق كما ينبغي، في ضوضاء الموسيقا الرديئة، وضجيج الأنخاب، وغدو الخدم ورواحهم، والصياح الذي لا ينقطع، والاضطراب الشامل، والجو الخانق، إن أحداً لم يتذوق كما ينبغي تلك الخمور الغالية والمقبلات المدهشة التي جلبت من موسكو خصيصاً لهذه المناسبة.

-٧-

هذه إحدى ليالي الشتاء الطويلة... كان كوفرين مضطجعاً في فراشه يقرأ قصة فرنسية، بينما تانيا المسكينة، وكانت تصاب كل مساء بصداع شديد نتيجة لحياة المدينة التي لم تألفها، قد استغرقت في النوم منذ زمن طويل، وهي تتمتم –من حين إلى آخر– بجمل متقطعة غير مفهومة في أحلامها.

ودقت الساعة الثالثة، فقطف كوفرين زهرة القنديل واضطجع في سريره، حيث ظل متمدداً مدّة من الزمن مغلق العينين عاجزاً عن النوم، معللاً ذلك بحرارة الغرفة الشديدة وهذيان تانيا المستمر... وأضاء القنديل مرة ثانية نحو الساعة الرابعة والنصف، فإذا الراهب الأسود يجلس على مقعد بجانب سريره.

قال الراهب: أسعدت مساء!

ومن ثم بعد لحظة وجيزة من الصمت، أضاف سائلاً: ترى، فيما تفكر الآن؟

فأجاب كوفرين: أفكر في المجد! لقد كان بطل هذه الرواية الفرنسية التي قرأتها لتوي عالماً في ميعة الصبا، ارتكب حماقات عديدة، ثم توفي حنيناً إلى المجد... وإن هذا الحنين، بالنسبة إليّ، شيء لا يدركه العقل.

– لأنك ذكي جداً... فأنت تنظر إلى الشهرة بعدم مبالاة، فكأنها دمية لا تسترعي انتباهك أبداً!

– هذا صحيح!

– إن الشهرة لا تجتذبك... أي إغراء، أو سرور، أو فائدة، يحصل الإنسان عليها إذا ما حفر اسمه على أحد الأنصاب، ما دام الزمان سيمحو ذلك الاسم إنْ عاجلاً أو آجلاً؟ بلى، إن هناك منكم لعدداً وفيراً، من حسن الحظ، حتى إن الذاكرة الإنسانية الضعيفة تعجز عن حفظ سائر أسمائكم!

فقال كوفرين: طبعاً! ثم ما جدوى تذكر تلك الأسماء؟... ولكن، فلنتحدث في أمر آخر... عن السعادة مثلاً. ما هذه السعادة؟

وعندما دقت الساعة الخامسة كان يجلس على حافة سريره، وقدماه تبلغان السجادة على الأرض، وقد أدار رأسه نحو الراهب الأسود، يقول: في الأزمان الغابرة ذعر إنسان ذعراً شديداً من سعادته، لشدة ما وجدها عظيمة عنيفة، حتى إنه قدم للآلهة –إرضاء وتملقاً– حمله المفضل ذبيحة دامية. أنت تعرف هذه القصة؟ وهأنذا الآن، مثل بوليكراتوس، أخاف قليلاً من سعادتي الخاصة. إني أختبر، منذ الصباح حتى المساء، الفرح وحده –إن الفرح يملأني ويخمد كل إحساساتي الأخرى... وأنا لا أعرف للحزن أو للغم أو للضجر معنى... وأنت ترى أني لا أنام، بل أظل طوال الليل أرقاً، ولا أملَ على الرغم من ذلك... إني جاد فيما أقول... فقد ابتدأت أشعر بالشكوك من حالي الراهنة...

فسأل الراهب بلهجة تدل على الدهشة: ولكن لمَ؟ إذن فأنت تعتقد أن الفرح إحساس خارق للطبيعة؟ أتظن أنه ليس من طبيعة الإنسان وجوهره؟ كلا! إن الإنسان بمقدار ما يرتقي صعداً على سلم التطور الفكري والأخلاقي، بمقدار ما تزداد حريته ويتضاعف رضاه من الحياة، ولذته من التمتع بها... إن سقراط وديوجين وماركوس أوريليوس قد عرفوا السرور فقط، ولم يعرفوا للحزن معنى! ولقد قال الرسول أيضاً: «افرح حتى الدرجة القصوى!». فافرح إذن، وكن سعيداً!

فقال كوفرين مازحاً: ولكن، إذا غضبت الآلهة على حين غرة؟ إذا أرادت أن تنتزع مني رفاهيتي، وتحرمني من سعادتي، وتضطرني إلى الارتعاش من الجوع والبرد؟ إن ذلك لن يلذ لي فيما أعتقد!

كانت تانيا قد استفاقت أثناء ذلك، وراحت تتطلع إلى زوجها بدهشة وفرق... كان يتحدث، ويخاطب، ويشير بيديه، ويغرق في الضحك... وكانت عيناه تلتمعان، وضحكته تتردّد غريبة غير مألوفة...

أطبقت على يده التي يمدها نحو الراهب، سألت: مع من تتحدث، يا أندريوشا؟ من هو هذا، يا أندريوشا؟ فأجاب كوفرين: من؟ إنه الراهب ولا شك!...

وأشار إلى الراهب الأسود، وهو يقول: إنه يجلس هناك، أفلست ترينه؟

– لا يوجد أحد هناك... لا يوجد أحد، يا أندريوشا! أنت مريض!

وعانقت تانيا زوجها، وضمته بشدة فكأنها تريد أن تحميه من ذلك الشبح، وغطت عينيه بيدها...

تأوهت باكية، وهي ترتجف من قمة رأسها حتى أخمص قدميها:

– أنت مريض! اغفر لي يا عزيزي! ولكني لاحظت، منذ مدّة طويلة، أنك مرهق الأعصاب نوعاً ما!... أنت مريض... نفسانياً، يا أندريوشا!...

وأخذت قشعريرتها سبيلها إليه، فتطلع مرة ثانية إلى المقعد الذي أمسى الآن فارغاً، وشعر على حين غرة بالضعف يسري في ذراعيه وساقيه... أخافه ذلك فطفق يرتدي ثيابه...

تمتم، وهو ما برح يرتجف بشدة: لا شيء، يا تانيا، لا شيء... ولكني، بكل تأكيد، منحرف الصحة بعض الشيء... لقد حان الوقت لأعترف بذلك!...

فقالت وهي تحاول أن تكبح جماح عبراتها: لقد لاحظت ذلك منذ أمدٍ بعيد، ولقد لاحظه والدي كذلك...

لقد كنت تحدث نفسك بشكل يثير الضحك، وتبتسم بشكل غريب كل الغرابة... وكذلك لم تكن تنام أبداً!...

ثم هتف في رعب شديد: آه، يا إلهي! يا إلهي! خلصنا! ولكن لا تخف، يا أندريوشا، لا تخف... بحق الله لا تخف...

وارتدت هي الأخرى ثيابها... واستطاع كوفرين أن يدرك –من مجرد النظر إليها– مبلغ خطورة حاله، ومعنى الراهب الأسود، ومعنى أحاديثهما الطويلة... إنه ليرى الآن، بكل وضوح وجلاء، إنه قد أضحى مجنوناً!...

وبعد أن ارتديا ثيابهما، دلفا إلى الصالة الكبيرة دون أن يدريا سبباً لذلك، هي أولاً، وهو من ورائها... وهنالك أبصرا بيجور سيميونوفيتش في ثياب النوم ينتظرهما... كان قد قدم ليقضي بضعة أيام إلى جانبهما، وقد أيقظه الآن نحيب تانيا وبكاؤها.

قالت تانيا، وهي ترتعش كالمحمومة: لا تخف، يا أندريوشا، لا تخف... يا والدي، سوف يمضي كل هذا... سوف يمضي وينقضي...

كان كوفرين شديد الاضطراب حتى لم يستطع إلى الحديث سبيلاً... ولكنه حاول أن يحمل القضية محمل المزاح والهزل، فاستدار نحو حميه وجرب أن يقول: هنئني... يخيل إليّ إنني قد فقدت صوابي!

ولكنه لم يفعل إلا تحريك شفتيه فقط، والابتسام في مرارة شديدة... وفي تمام الساعة التاسعة، ألبساه معطفه، وألقيا على كتفيه معطفاً آخر من الفرو، ولفاه بشال كبير، ومن ثم هبا به إلى الطبيب.

ومنذ ذلك اليوم بدأ يتداوى...

إنه الصيف مرة أخرى...

رجع كوفرين، تنفيذاً لأوامر الطبيب، إلى الريف... لقد شفي تماماً، ولم يعد يرى الراهب الأسود بعد الآن، ولـم يبـق أمامه إلا أن يستردَّ قـواه الحكيمة. كان يعيش مـع حميه، يشرب مقداراً كبيراً من اللبن، ويعمل ساعتين في النهار فقط، لا يقرب الخمرة البتة، ولا يعرف التدخين على الإطلاق.

واحتفـل، فـي التاسع عشر من حزيران، عشية عيد النبي إيليا، بخدمة صلاة الغروب في الدار... وعندمـا تناول الكاهن المبخرة من القندلفت، وغدت الصالة الواسعة تعبق برائحة البخور كما في الكنيسـة، أحسّ كوفرين بالإعياء والضجر، فمضى إلى الحديقة، وراح يذرع الممرات غدواً ورواحاً، دون أن يأبـه لتلـك الزهور الجميلة الرائعة المحدقة به من كل حـدب وصوب، واقتعد دكة مدّة من الوقـت، ومـن ثم اتجه نحو الباحة الخارجية، وهبط الضفـة المنحدرة حتى انتهى إلى حافة النهر، ووقـف هنـاك دون حراك، يشخص بتسـاؤل وحيرة إلى المـاء... إن أشجار الصنوبـر القاتمة، ذات الجـذور الخشنـة الشائكة، هذه الأشجار التـي رآته –قبل سنة مضت– شديـد الفتوة، كثير السرور، عظيـم النشـاط، لا تتبادل الهمس حاليـاً، بل تقف صامتة لا حراك بها، وكأنهـا لم تعرفه مطلقاً... وفـي الحقيقـة أنه يصعـب جداً أن يعرفـه إنسان بعد الآن، إذا مـا رآه بشعره القصيـر المقصوص، ومشيته الضعيفة، ووجهه المتبدل الذي أظلم وشحب وتغيّر كثيراً منذ السنة الماضية...

اجتـاز مجـرى النهر على الحجـارة المسطحة، فترامـى أمام عينيه الحقل الـذي كان الجاودار يكسـوه فـي السنـة الماضية، وقـد امتلأ الآن ببقايـا الشوفان المحصـود... كانت الشمس قد أوت إلـى خدرهـا، وغسق عريض، قانـي الحمرة، يلتمع في الأفق، وينذر بجـوٍّ عاصف في الغداة... كان الهـدوء يحيـط به من كل جانب، فوقف يرنو إلى تلك الناحية التي شاهد فيها الراهب الأسود للمرة الأولـى في العام المنصرم، وظل هكذا طوال عشرين دقيقة يراقب القرمز كيف يشحب لونه ويزول، وتحتـل الظلمـة مكانه شيئـاً فشيئاً... وعندما عـاد أدراجه أخيـراً إلى البيت متعبـاً متبرماً، شاهد بيجور سيميونوفيتش وتانيا جالسين على سلم الشرفة يتناولان الشاي بعد انتهاء الصلاة... كانا يتبـادلان الحديث، فتوقفا عن متابعته عندما لمحا كوفريـن... ولكن كوفرين أدرك من ملامحهما أنهما كانا يتحدثان عنه...

قالت تانيا لزوجها: هذا موعد تناولك اللبن، فيما أظن!

فأجاب، وهو يجلس على أسفل دركة من السلم: لا، إن الموعد لم يحن بعد! اشربيه أنت، فلست براغب فيه.

فتبادلت تانيا ووالدها النظر في ضيق وقلق، ثم قالت في صوت مذنب: أنت تعرف جيداً أن اللبن يفيدك!...

فضحك كوفرين: نعم! كل الفائدة! إنني أهنئك، لقد كسبت أوقية من الوزن منذ يوم الجمعة الأخير!

وضغط رأسه بين يديه بعنف، وقال في صوت جريح: لم؟ لم تداوينني؟ خلائط البرومور، بطالة، حمّامات دافئة، مراقبة كل لقمة!... وكل خطوة!... في ذعر وقلق لا معنى لهما... إن كل هذا سيقودني في النهاية إلى البلاهة... لقد فقدت صوابي!... وأصبت بجنون العظمة!... ولكنني كنت، على الرغم من كل ذلك، لامعاً، نشيطاً، وسعيداً أيضاً!... كنت على الاهتمام، وكنت نسيج وحدي أيضاً، أما الآن فقد أصبحت عاقلاً ومتيناً، مثلي مثل سائر الناس، وبالمقابل فقد صرت إلى إنسان تافه، عادي، وحياتي تبعث على الملل... آه، يا لها من قسوة!... يا للقسوة التي يعاملونني بها!... لقد كنت أشاهد تخيلات وأهلاساً... ولكن، هل أساء ذلك إلى إنسان؟ إنني أسألكما إن كان قد أساء حقاً!

فتنهد بيجور سيميونوفيتش، وقال: الله وحده يدري ماذا تعني؟ إن مجرد الاستماع إليك سخف باطل!

– إذن، فليس ما يدعوك إلى الاستماع!

لقد أضحى وجود الآخرين، وخاصة وجود بيجور سيميونوفيتش، يثير نقمة كوفرين ويضيق عليه الخناق كثيراً، فيخاطب حماه بجفاء، وبرود، وقسوة أيضاً، ولا يستطيع أن يتطلع إليه إلا في نفور وكراهية، فيحتار بيجور سيميونوفيتش ويسقط في يده، ودون أن يفهم كيف أصبح مذنباً يسعل كمن ارتكب جرماً يستحق اللوم عليه... وكانت تانيا تنحني على والدها، وهي عاجزة عن إدراك سبب هذا الانقلاب المفاجئ في علاقتهما الطيبة السابقة، وتشخص في عينيه متسائلة باضطراب وارتباك وقلق... كان يتضح لها أن علاقاتهما تزداد سوءاً يوماً إثر يوم، وأنَّ والدها قد تقدم في السن كثيراً في هذه الأيام الأخيرة، وأنَّ زوجها غدا حاد الطبع، متقلب الأهواء، نزقاً وتافهاً في وقت واحد... ولم تعد تضحك، أو تغني، أو تقرب الطعام أبداً، بل أصبحت تقضي ليالي طويلة فريسة للأرق والاضطراب، تعيش تحت نير خوف عتيد، تعذب نفسها حتى لتضطجع –منذ الظهيرة حتى المساء– فاقدة الشعور لا حراك بها... ولقد خيل إليها، في أثناء الصلاة، أن والدها يبكي... فهي تحاول الآن، على الشرفة، ألا تفكر في ذلك مطلقاً...

قال كوفرين: ما أسعد بوذا ومحمداً وشكسبير لأن أقرباءهم وأطباءهم لم يعالجوهم كي ينقذوهم من إشراقهم وإلهامهم! لو أن محمداً، هذا الرجل المدهش، تناول برومور البوتاسيوم دواء لأعصابه، وعمل ساعتين في اليوم فقط، وعاش على الحمية اللبنية، إذن لما ترك وراءه من الآثار أكثر مما يترك أي إنسان عادي آخر. إن الإنسانية ستصبح، بفضل جهود الأطباء والأنسباء طيبي القلوب، بلهاء سخيفة، والتفاهة تصير عبقرية في نظر البشر، وتتفسخ الحضارة وتتلاشى بالتدريج.

وختم كوفرين حديثه قائلاً في غيظ مكظوم: لو كنتما تدريان فقط ما أعظم امتناني لكما!

اجتاحه استياء شديد، وكي يمتنع عن الاسترسال في أقواله، نهض ودلف إلى المنزل. كان الليل ساكن الريح، ورائحة التبغ والنعناع تفوح من خلال النافذة حتى خيشوميه، وشعاعات القمر ترتمي على الأرض والبيان من خلال نوافذ الصالة الكبيرة المظلمة... تذكر كوفرين أفراح الصيف المنصرم، عندما كان الهواء، مثله اليوم، عابقاً برائحة النعناع، وشعاعات القمر تنصبّ من النافذة انصباباً... وأفضى إلى غرفته الخاصة، وقد راودته الرغبة في إيقاظ حالته النفسانية في السنة الفائتة، وأشعل سيجاراً طويلاً، وأمر الخادم أن يجلب له خمراً... ولكنه وجد السيجار اليوم مرَّ الطعم، والخمر قد فقد مذاق السنة الماضية... ما أصعب أن يفقد الإنسان العادة! إنَّ رأسه يدور ويدور، وقلبه يخفق ويخفق، وهو لما يدخن بعد سوى سيجار واحد، يجرع سوى كأسين من لخمر فقط، حتى لقد اضطر إلى تناول برومور البوتاسيوم مرة أخرى...

وقبل أن يمضي إلى سريره، توجهت تانيا إليه قائلة: اصغِ! إن والدي يعبدك، ولكنك مستاء منه أبداً دون سبب، الأمر الذي يقتله... انظر إلى وجهه! إنه يشيخ! ليس من يوم إلى يوم، بل من ساعة إلى ساعة! أتوسل إليك، يا أندريوشا، محبة بالمسيح، وبرحمة والدك، وفي سبيل راحة فكري وأمنه، كن لطيفاً معه من جديد!

– لا أستطيع، ولست أريد ذلك!

واجتاحت تانيا موجة من الارتعاش: ولكن، لمَ؟ أوضح لي السبب في ذلك!

فأجاب كوفرين في عدم مبالاة، وهو يهزّ كتفيه:

– لأنني لا أحبه! هذا كل شيء... ولكن من الأفضل أن ندع هذا الحديث... إنه والدك!

فقالت تانيا: أنا لا أستطيع، لا أستطيع أن أفهم.

وضغطت بيديها على جبهتها، وراحت تشخص إلى نقطة واحدة وهي تقول: إن شيئاً مريعاً، شيئاً عصياً على الإدراك يجري في هذا المنزل. وأنت يا أندريوشا، لقد تغيرت، ولم تعد ذاتك أبداً... أنت –الإنسان الذكي، الإنسان الاستثنائي– تثور من أجل توافه الأمور... إنك تستاء من أشياء طفيفة جداً، وتغضب وتثور، حتى ليصعب أن يصدق الإنسان أنك أنت نفسك!...

واسترسلت، وهي تقبّل يديه، وترتجف خوفاً من كلماتها نفسها: أنت ذكي، طيب، نبيل... سوف تنصف والدي! إنه طيب كثيراً...

– إنه غير طيب بل ساذج فقط. إن أعمام المهازل هؤلاء –الذين من نموذج والدك– بوجوههم البدينة، المتساهلة السخيفة، يتمتعون بصفات خاصة كانت فيما مضى تروق لي وتضحكني، إن في القصص، أو في المسرحيات، أو في الحياة أيضاً... ولكني أنفر منهم حالياً، وأبغضهم، فهم أنانيون حتى نخاع عظامهم... وأكثر ما يثير اشمئزازي منهم هو شبعهم، وهذا التفاؤل المعدي، الحيواني الخالص، تفاؤل الثور أو الخنزير الذي يميزهم.

وجلست تانيا على الفراش، وأسندت رأسها إلى إحدى الوسائد.

قالت وفي رنة صوتها إعياء واضح يشير إلى الصعوبة الفائقة التي تجدها في الحديث: إنه لعذاب أليم! إني لم أجد لحظة من الراحة منذ الشتاء الماضي... ذلك فظيع، يا إلهي! إني أتعذب...

– نعم، بالطبع! إنني هيرودوس! وأنت، ووالدك، الرضّع الأبرياء الذين ذبحوا... طبعاً!

بدا وجهه لتانيا بشعاً يبعث على النفور... إن سيماء الحقد والسخرية لا تلائمه... لا بل شاهدت أيضاً أن شيئاً مما ينقص وجهه الذي قد تغير كثيراً، فيما يخال لها، منذ اليوم الذي قصّ شعره فيه. وأحست رغبة لا تقاوم في أن تتوجه إليه بكلام مهين يسيء إليه، ولكنها تمالكت نفسها في الوقت المناسب، ودلفت إلى غرفة نومها رازحة تحت نير رعب عظيم...

–٩–

ومُنحَ كوفرين مقعد أستاذ في الجامعة، وعيّن موعد محاضرته الأولى في الثاني من كانون الأول، وعُلق إعلان بهذا المعنى في أروقة الجامعة وردهاتها... وعندما أزف الموعد تلقت إدارة الجامعة برقية تفيدها أن كوفرين لن يستطيع القدوم لإلقاء محاضرته بسبب مرضه الشديد...

إن الدم يدفق من حلقه، فهو يبصقه بكثرة... ولكن الدماء تدفقت بغزارة، وكأنها جدول صغير، مرتين متواليتين في الشهر الأخير، فهو يعيش حالياً في حالة من الخدر الدائم... ولكن ذلك المرض لم يلقِ الذعر في قلبه أبداً، لأنه يعرف أن والدته المتوفاة قد عاشت نحو عشر سنوات ونيف وهي تعاني الشكوى نفسها... وكذلك صرّح أطباؤه أيضاً، من جهة أخرى، بأن حالته ليست بخطرة مطلقاً، ونصحوه ألّا يقلق البتة، وأن يعيش حياة منتظمة، وألا يكثر من الحديث أبداً...

وأرجئت الدروس في شهر كانون الثاني للسبب عينه، وفي شباط كان الأوان قد فات كي يبدأها، فأرجئت حتى السنة القادمة...

ولم يعد يعيش مع تانيا، بل مع امرأة أخرى، تكبره سناً، وتُعنى به وكأنه طفل صغير... وكان مزاجه قد أصبح هادئاً طيعاً، فهو يرضخ لها عن طيب خاطر، حتى لقد قبل بالذهاب إلى القرم حين راحت فارفارا نيقولايفنا –وذلك هو اسمها– تعد العدة للذهاب به إلى هناك، على الرغم من شعوره الثابت بأنه لن يستفيد شيئاً من هذا الانتقال، بل توجّسه منه شراً أيضاً...

وبلغا سباستبول متأخرين في إحدى الأمسيات، وتوقفا هناك طلباً لبعض الراحة، وفي نيتهما التوجه نحو يالطا في اليوم التالي... كان كلاهما متعبين من عناء السفر، فاحتست فارفارا نيقولايفنا قليلاً من الشاي، ومن ثم مضت سريعاً إلى فراشها، بينما ظل كوفرين مستيقظاً لا توانيه الرغبة في النوم... لقد تلقى، قبل أن يغادر الدار إلى المحطة بساعة واحدة، رسالة من تانيا لم يقرأها بعد حتى الآن، بل ليحسّ القلق والاضطراب عندما يفكر فيها حالياً...

إنه يعرف، في صميم قلبه، أن زواجه من تانيا كان خطيئة فادحة، فهو سعيد الآن لأنه قد ابتعد عنها أخيراً؛ ولكن ذكرى هذه المرأة، التي بدت في المدة الأخيرة وكأنها قد استحالت مومياء حيّة تسير على القدمين، مومياء مات كل شيء فيها إلا العينين الكبيرتين الذكيتين، هذه الذكرى لا توقظ فيه إلا الرثاء لنفسه، وشيئاً من النقمة عليها...

وذكرته الكتابة الموجودة على الغلاف بين يديه بما ارتكبه، قبل سنتين، من ظلم عظيم فادح وقسوة شديدة بحقها، وكيف انتقم لفراغه الفكري، وعزلته، ونفوره من الحياة، من قوم لم يرتكبوا في حقه إثماً قط... وتذكر أيضاً كيف مزّق مرة أطروحته وسائر المقالات التي كتبها منذ تاريخ مرضه، ورمى بها من النافذة قطعاً صغيرة، وكيف تطايرت هذه القطع في الهواء ثم استقرت على الأشجار والأزهار... لقد وجد في كل صفحة من صفحاتها ادعاءات غريبة لا أساس لها مطلقاً، وهياجاً طائشاً، وجنوناً بالعظمة لا حدود له... ولقد خيّل إليه. لدى قراءته هذه الأشياء، أنه قد كتب وصفاً دقيقاً لأخطائه الخاصة... ولكنه أحسّ، على الرغم من ذلك، عندما مزّق المخطوط الأخير ورمى به من النافذة، غماً ونكداً عظيمين، فمضى إلى زوجه وراح يقسو عليها بالكلام... يا للسماوات! كيف دمّر حياتها حقاً!... وتذكر أيضاً كيف أراد مرة أن يسيء إليها ويؤلمها، فأخبرها أن والدها قد لعب في قصتهما الغرامية دوراً غير مألوف، بل سأله أن يتزوجها... ولكن بيجور سيميونوفيتش سمع حديثهما صدفة، فاندفع إلى الغرفة في عنف وراح يضرب الأرض بقدمه في

المـكان نفســه، وقد انعقد لسـانه لشدة الذهول حتى لـم يستطع أن ينبس ببنت شفة، بل أخذ يغمغم بـأشيـاء غيـر مفهومة وكأنه قد فقد القدرة على الكلام نهـائياً... أما تـانيا فقد أرسلت صيحة حادة تمـزق القلب عندما رأت والدهــا، وسقطت على الأرض فـاقدة الوعي... كل هذا كان بغيضاً جداً في الحقيقة!...

آبـت إليــه كل هــذه الذكرات وهو يرى إلى تلـك الكتابة المعروفة لديه حـق المعرفة، فخرج إلى الشرفـة... إن الطقس دافئ، والهدوء يخيم في كل مكان، ورائـحة مـالـحة تدفدف إليه من جهة البحـر... وكان ضوء القمر، والأنوار المنتشرة حوله، تنعكس على سطح الخليج الرائع، حتى ليستحيل تمـاماً تعيين لون الماء على وجه الدقة... كان هذا اللون مزيجـاً لطيفاً نـاعماً جداً من الأزرق الضـارب إلى السـواد والـخضـرة، والمياه تشبه، في بعض الجهات، الـزاج الأزرق؛ بينما أشعة القمر السائلة تملأ الخليـج عوضــاً عن المـاء في جهــات أخرى... وكان كل ذلـك يمتزج في تنـاسق مـن الألوان يُصعّد السكينة والغبطة والإشراق جميعاً...

وكـانـت النوافـذ في الطابق السفلي من الخان، تحت الشرفــة تمـامـاً، مفتوحة على مصـاريعها بكل تـأكيد، لأن كوفرين كان يسمع بكل وضوح أصواتـاً نسـائية يرافقها ضحك متواصل تدفدف إليه منـها... لا ريب أن هنـاك حفلة مـا...

وبـذل كوفريـن جهداً كبيـراً كي يفضّ الرسالـة، ومن ثم قفل راجعـاً إلى غرفته حيـث شرع يقرأ كتـاب تـانيـا: «لقد توفي والدي في التوّ واللحظة... وإني مدينة لك بهذا، لأنك أنت الذي قتلته! لقد تلفت حديقتنا، لأن الغربـاء يشرفون عليها... إن مـا كان يـخافه والدي حتى الدرجة القصوى قد حدث!... وإني مدينة لك بـهذا أيضـاً!... إني أبغضك بكل قوى نفسي، وأودّ أن تفنى في أسرع وقت ممكن وتموت!... أواه، مــا أشدّ آلامــي! إن قلبي يـحترق بـألم ممض لا يـحتمل!... فلتكن ملعونـاً!... لقد ظننتك إنسانـاً استثنـائيـاً، ظننتك عبقريـاً نـابغة، ولقد أحببتك، ولكنك أثبت أنك مجرد مـجنون ليس غير...».

ولـم يستطـع كوفرين أن يتـابــع القراءة، فمـزق الرسـالة ورمــى بقطعها بعيـداً. إن الاضطراب يستولي عليه –اضطراب أشبه مـا يكون برعب قـاتل... وكـانت فـارفـارا نيقولايفنا تنـام في الـجانب الآخــر من الغرفة، وراء الـحاجز، وهو يستطيع أن يسمــع إلى تنفسها بكل وضوح، وأصوات النسـاء والضحـك المتواصل تـأتيه من الطابــق السفلي، ولكنه يحسّ أن ليس في الفندق بكـامله نفس حية إلاه!... كـان إدراكــه أن تـانيا الشقية المرهقة قــد لعنته في رسـالتها، وتمنت لـه الشرّ والفنـاء، يبعث

فـي نفسـه ألماً عميقـاً، فيروح يتطلع بهلـع نـاحية البـاب وكأنـه يخـاف أن يرى ثـانيـة تلك القوة المجهولـة التي أنزلت بوجوده الخـاص ووجود سـائر الذين يحبهم كثيراً من الدمـار طوال السنتين الأخيرتين.

كانـت التجربـة قد علمته أن أفضل ملجأ يأوي إليـه عندما تنهار الأعصاب هو العمل، فلم يكن له مناص مـن الجلوس إلى الطاولة وتركيز ذهنه في فكرة معينة... وهكذا فقد تناول من محفظة أوراقه الحمـراء دفتـراً يضمّ تصميم كتاب صغير كان ينوي إتمامه خـلال إقامته في القرم فيما لو تعب من البطالـة... جلس إلـى الطاولة وشرع يشتغل بتصميمه، فخيل إليه أنه قـد استردّ ثانية سلامه السابق، ورزانته وهدوءه ولا مبالاته، وقاده مخطوطه إلى التأمل في عبث هذا العالم وعدم جدواه، فراح يفكر فـي الثمن الباهظ الـذي تطلبه الحياة من أجل أتفه الخيرات، هذه الخيـرات العادية جداً التي تمنحها للبشـر... تلـك في حاله مثلاً، فكـي يبلغ إلى كرسي أستـاذ الفلسفة في الأربعين مـن عمره، كي يكون أستـاذاً عاديـاً، كي ينشر أفـكاراً مبتذلة – وهذه الأفـكار هي ملك الآخرين في أغلـب الأحيـان– بلغة ركيكة، مضجرة، ثقيلة، كي يعمل بـاختصـار إلى مركز مثقف متوسط الذكاء، قد أرهق نفسه بـالدراسة طوال خمسة عشر عـاماً، وعمل ليلاً ونـهاراً دون كلل، واجتاز مرضاً نفسانياً قـاسياً، وتحمل عبء زواج فـاشـل، وارتكب حمـاقات كثيرة وظلامـات عديدة تعذبـه ذكراهـا وتؤلمه... إن كوفرين ليدرك الآن بكل وضـوح أنّه إنسان عــادي، ويقبل ذلك بكل طيبة خـاطر، لأنه يعرف أن من واجب كل إنسان أن يرضى بما هو في واقع الأمر...

وحمـل التصميم الهدوء إليه، ولكن الرسالة الممزقة كانـت تتبعثر على الأرض وتمنعه من تركيز أفـكاره... نهـض، وجمع قطـع الأوراق الصغيرة، ورمى بها من النـافـذة... ولكن نسمة هبت من نـاحية البحـر، فتطايـرت الأوراق مرتدة نحو حفاف النـافذة، واجتـاحه مـن جديد ذلك الاضطراب القريب جداً من الرعب، وخيل إليه مرة أخرى أن ليس في الفندق بكامله نفس حية سواء...

... وخرج إلى الشرفة، فراح الخليج –كما لو كان حياً– يرمقه بـاحتشادات أضوائه وعيونه الزرقاء المسـودّة، عيونـه المؤلفة مـن الفيروز والنـار، يرمقـه ويومئ له في وقت واحـد... إن الجو حار خانق يغري بـالاستحمام في المـاء البـارد!

وأخـذ كمـان يرسـل أنغامه تحت الشرفة علـى حين بغته، ترافقـه امرأتان بـالغنـاء. كان كل ذلك معروفـاً لديه، فـالأغنية تحدِّث عن صبية مريضة الخيـال والتصور، قد سمعت في الليل أصداء غريبة تنبعث من الحديقة، ووجدت فيها توافقاً وقدسية عصيين على إدراكنا نحن الفانين...

حبس كوفرين أنفاسه، وتوقف قلبه عن الخفقان، وراح ذلك الشغف السحري المدهش، الذي نسيه منذ أمد طويل، يخفق في قلبه ثانية ويضطرب...

وبان على الضفة الثانية عمود أسود طويل يشبه الإعصار أو ميزاباً من الماء يمتد بين السماء والأرض، وراح يتحرك بسرعة تفوق التصور عبر الخليج متجهاً نحو الفندق، وهو يصغر ويصغر حتى تنحى كوفرين جانباً ليفسح له الطريق... وهذا الراهب، برأسه الأشيب العاري، وحاجبيه الأسودين، وقدميه الحافيتين، وساعديه المتصالبين فوق صدره، يمر بالقرب منه، ثم يتوقف في وسط الغرفة...

سأل، في نغمة عتاب، وهو يتطلع في حنان إلى كوفرين: لِمَ لَمْ تصدقني؟ لو كنت صدقتني عندما قلت لك إنك عبقري نابغة، لما انقضت هاتان السنتان مشحونتين بكل هذه التعاسة وهذا الجدب القاحل!

وآمن كوفرين، ثانية، بأنه مختار من الله، وأنه عبقري نابغة حقاً، وتذكر بجلاء كل أحاديثه السابقة مع الراهب الأسود، وودّ أن يصل معه أطراف الحديث مرة أخرى... ولكن الدم تدفق من حلقه على صدره، فطفق يحرك ذراعيه على صدره، دون أن يدري ما يجب أن يفعل، حتى أصبح كفاه مخضبين بالدم الأحمر القانئ... وأراد أن ينادي فارفارا نيقولايفنا، التي كانت ترقد وراء الحاجز، فصاح وهو يبذل جهوداً عظيمة في سبيل ذلك: تانيا!

وانطرح على الأرض، ورفع يديه، ثم صاح ثانية: تانيا!

أخذ يدعو تانيا إليه، ويدعو الحديقة الكبيرة ذات الزهور العجيبة، ويدعو الباحة الخارجية وأشجار الصنوبر بجذوعها الخشنة، وحقل الجاودار، وعلومه المدهشة، وشبابه، وجرأته، وفرحه، وحياته التي كانت مرة رائعة جداً... وشاهد على الأرض أمامه بركة كبيرة من الدماء، ولكنه لم يستطع، لضعفه الشديد، أن يتفوه بكلمة واحدة أبداً... ولكن فرحاً لا يحدّ ملأ كينونته بأسرها... وكانت ألحان السيرينادا تتوالى من تحت الشرفة، والراهب الأسود يهمس في أذنه بأنه عبقري، وأنه يموت لأن جسده الواهن المكدود قد فقد توازنه، ولم يعد يستطيع بعد الآن أن يخدم كغطاء للعبقرية العظيمة.

وعندما استيقظت فارفارا نيقولايفنا، وخرجت من وراء حاجزها، كان كوفرين قد مات... ولكن ابتسامة سعادة جامدة كانت متجمدة على محياه...

الهوامش

(١)- بيت شعر لبوشكين من قصيدته الشهيرة: بولتانا.

(٢)- اسمع رأي الجانب الآخر.

(٣)- هذا يكفي الحكيم.

(٤)- العقل السليم في الجسم السليم.

❁ ❁ ❁

الدب

مسرحية في فصل واحد

بقلم : أنطون تشيخوف

الاشخاص : ايلينا ايفانوفنا بوبوفا ، أرملة شابة من ذوات الاملاك ، يعلو وجنتيها قليل من النمش .
جريجوري ستيبانوفيتش سميرنوف ، مزارع في منتصف العمر .
لوقا ، خادم السيدة بوبوفا ، عجوز طاعن في السن .

المنظر : غرفة استقبال في دار السيدة بوبوفا الريفية ، تبدو السيدة في لباس الحداد الاسود ، وقد علقت ناظريها في صورة فوتوغرافية . لوقا يتحدث اليها :

لوقا : ليس هذا من التعقل في شيء ، ياسيدتي . أنت تقضين على نفسك فقط . هذه الخادم والطاهية قد انطلقتا تجمعان توت العليق ، وكل مخلوق حي يود أن يتمتع بالحياة ، حتى ان القطة لتعرف كيف تمتع نفسها ، فهي تتجول في الساحة تصيد العصافير .. وليس الاك ، تقبعين في هذه الغرفة طوال النهار ، كما لو كانت هذه الغرفة ديرا أو صومعة ، فما تحاولين أن تدخلي البهجة والسرور الى قلبك أبدا . نعم ، هذا صحيح ! أظن أنك لم تبرحي الدار منذ سنة كاملة !

السيدة بوبوفا : وأنا لن أخرج منها أبدا .. وما يدعوني الى ذلك ؟ لقد انتهت حياتي . فهو مسجى في ضريحه ، وأنا دفنت نفسي بين هذه الجدران الاربعة . فكلانا قد مات !

لوقا : ما هذا الذي تقولين ؟ يجب ألا أصغي اليك ، من دون ريب . لقد توفى الله نيقولاي ميخائيلوفيتش ، اذن ، نحن لا نستطيع أن نفعل شيئا ، انها ارادة الله . وأرجو أن تنعم روحه في ملكوت السماوات ! ولقد بكيته أحر البكاء ، وهذا كاف ، فثمة حدود لكل شيء . والمرء لا يستطيع أن يبكي ويحزن الى الابد . لقد توفيت زوجتي العجوز أنا أيضا ، عندما انتهى أجلها وحانت ساعتها . حسنا ؟ لقد حزنت عليها ، وبكيت طيلة شهر كامل ، وأحسب أن ذلك يكفيها . وأما أن أظل أبكي طيلة العمر ، حسنا ، ان تلك الشيخة لا تستأهل ذلك اطلاقا . (يتنهد) لقد نسيت كل من يحيط بك من الجيران .. وأنت لا تغادرين الدار ، ولا تقابلين أحدا . نحن نعيش ، واصفحي عني ، أشبه بالعناكب – لا نرى للنهار ضوءا على الاطلاق . لقد هرأت الفيران ألبستي وأكلت أكثر أجزائها . وتتصرفين كأن الناس الطيبين لا يحيطون بنا – ان المقاطعة تعج بالسادة الافاضل . ولقد عسكرت فرقة من الجيش في ريبلوف ، وضباطها يقطرون حلاوة ، بحيث لا تستطيعين ارواء عينيك من طلعتهم البهية . وهنالك في كل يوم جمعة حفلة راقصة في المعسكر ، فتعزف فرقتهم الموسيقية

الالحان العذبة الرائعة كل يوم تقريبا • ايه ، ياسيدتي العزيزة ! أنت شابة وجميلة مزيج من الخوخ والحليب ، لا ينقصك سوى شيء من المرح والسرور • ان الجمال ، كما تعلمين ، لا يعمر طويلا • واذا ما انقضت عشر سنوات ، وأحببت أن تبهري الضباط بمحاسنك ، يكون الوقت قد فات ومضى •

السيدة بوبوفا : (في عزم) أرجوك ألا تعود الى مثل هذا الحديث مرة أخرى ! أنت تعرف أن الحياة قد فقدت كل قيمة لها عندي ، منذ وفاة نيقولاي ميخائيلوفيتش • أنت تحسبني ما زلت على قيد الحياة ، ولكن هذا يخطر في بالك وحدك فقط ! لقد نذرت على نفسي ألا أخلع ثياب الحداد عن جسدي ، وألا ترى النور عيناي حتى آخر رمق من الحياة يصطخب في صدري • أسامع أنت ؟ فليكن شبحه شاهدا على ما أضمر له من حب ! نعم ، أنا أدري أنه لا يخفى عليك كم كان يقسو علي في أغلب الاوقات ويجور ، و •• حتى انه كان يخونني أحيانا ، ولكنني سأظل صادقة له وفية لحبه حتى الموت ، كيما أبرهن له كيف أستطيع أن أحب حبا صادقا • وسيراني ، من هناك ، من العالم الآخر ، مثلما كنت عليه قبل وفاته ••

لوقا : بودي لو تنطلقين في نزهة عبر الحديقة ، عوضا عن اضاعة الوقت في مثل هذا الحديث ، أو أن تأمري باسراج الحصان توبي أو المارد ، ومن ثم تنطلقين لزيارة بعض الجيرة والاصحاب •

السيدة بوبوفا : أوه • (تبكي) •

لوقا : سيدتي ! سيدتي العزيزة ! ما هذا ؟ حفظك الله !

السيدة بوبوفا : لكم كان يحب توبي ! كان يمتطيه دائما في زياراته لاسرتي كورشاجين وفلاسوف ولكم كان يحسن الركوب ويجيده ! ما كان أبهى طلعته وأجلاها حين يمسك باللجام بكل ما لديه من قوة وبأس ! أتذكر ذلك ؟ توبي ، توبي ! مرهم أن يقدموا له وجبة فاخرة من الشوفان هذا النهار ••

لوقا : أمرك ، يا سيدتي • (صوت جرس يدق بعنف) •

السيدة بوبوفا : (مرتعدة) من هذا ؟ قل اني لا أستقبل أحدا •

لوقا : سمعا وطاعة ، يا سيدتي • (يخرج) •

السيدة بوبوفا : (تتطلع الى الصورة) لسوف ترى ، يا نيقولاس ، كيف أستطيع أن أحب وأسامح • ان حبي سيموت معي ، حينما يتوقف هذا القلب المسكين الصغير عن خفقاته • (تضحك من خلال دموعها) • ولكن ، ألم تحس بالخجل ؟ انني زوجة فتية مخلصة طيبة • لقد انقطعت عن العالم وأغلقت الابواب على نفسي ، وسأبقى أمينة لك حتى يغيبني القبر • أما أنت •• ألم تشعر بالخجل ؟ أنت ، أيها الطفل الشرير ؟ لقد كنت تخونني ، وتختلق لي الروايات ، وتخلفني وحيدة أسابيع بطولها •• (يدخل لوقا) •

لوقا : (مفزوعا) سيدتي •• ثمة رجل يسأل عنك ، ويود رؤيتك ••

السيدة بوبوفا : ولكن ، ألم تخبره أني انقطعت عن مقابلة الناس منذ وفاة زوجي ؟

لوقـــا : لقد فعلت ، ولكنه لم يصغ الي • وقال ان ثمة قضية عاجلة خطيرة •

السيدةبوبوفا : أنا لن أستقبل أحدا !

لوقـــا : لقد أفهمته هـذا ، ولكـن •• ولكـن الشيطان •• زمجر ، وشتم ، ودفع بنفسه داخل الباب •• وهـو الآن في غرفـة الطعام •

السيدةبوبوفا : (متضايقة) حسنا ، فليدخل••ياالاخلاق هؤلاء الناس ! (يخرج لوقا) • لكم يضايقني هؤلاء القوم ! ماذا يبغون مني ؟ ولم يعكرون علي صفو وحدتي؟ (تتنهد) كلا ، لا بد أن أدخل الدير • (تتأمل قليلا) • نعـم •• الى الدير (يدخل سميرنوف ولوقا) •

سميرنوف : (يخاطب لوقا) أنت ، يا أحمق ، أنت ولوع بالثرثرة كثيرا •• أنت حمار ! (يرى السيدة بوبوفا فيتكلم بوقار وأدب) سيدتي ، لي الشرف بأن أعرفك بنفسي، فأنا جريجوري ستيبانوفيتش سميرنوف ، صاحب أملاك ، وملازم متقاعد في المدفعية! وقـد اضطررت الى ازعاجك في قضيـة عاجلة خطيرة •

السيدةبوبوفا : (دون أن تمد له يدها) ماذا تريد ؟

سميرنوف : ان المرحوم زوجك ، وقد كان لي شرف التعرف اليه ، توفي وهو مدين لي بمبلغ ألف ومائتي روبل ، وذلك بموجب صكين مسجلين • ولما كنت مضطرا الى تسديد أقساط مالية استوجب دفعها في الغـداة للبنك الزراعي ، فقـد جئت أسألك ، يا سيدتي ، أن تدفعي لي المـال هـذا النهـار •

السيدةبوبوفا : ألف ومائتا روبل ؟•• ولم هو مدين لك بهذا المبلغ ؟

سميرنوف : لقد اعتاد أن يشتري الشوفان منعندي•

السيدةبوبوفا : (تتنهد وتخاطب لوقا) لا تنس ، يالوقا ، أن تقدم لتوبي وجبة فاخرة منالشوفان! (يخرج لوقا ، فتخاطب سميرنوف) اذا كان نيقولاي ميخائيلوفيتش قد توفي وهو مدين لك ، فلسوف أدفع مالك من دون ريب •• ولكن ، يجب أن تعذرني هذا النهار ، فأنا لا أملك من النقود شيئا • سيرجع وكيل أعمالي من المدينة بعد غد، وسأطلب اليه أن يدفع حسابك بكامله • وأنا ، في هذا الوقت الحاضر ، لاأستطيع أن أحقق لك بغيتك •• يضاف الى ذلك أنه في هذا اليوم يمر على وفاة زوجي سبعة شهور تمامـا ، وتراني في حالـة نفسية لا تحبب الي أن أتحدث فيالمسائل المالية ، أو أعيرهاأدنىاهتمامعلىالاطلاق•

سميرنوف : وأنا ، أيضا ، في حالة نفسية تجبرنيعلى أن أهرب من هذه الحياة ! ان لم أدفع الفوائد المترتبةعليفيالغداة • سيحجزون على ما عندي من أملاك !

السيدةبوبوفا : بعد غد تقبض مالك •

سميرنوف : انني في حاجة ماسة الى المال هذا النهار، وليس بعد غد •

السيدةبوبوفا : انني آسفة ، فأنا لا أستطيع أن أدفع لك اليـوم •

سميرنوف : وأنا لا أستطيع الانتظار الى ما بعد غد •

السيدةبوبوفا : لكن ، ماذا أفعل ان لم أكن أملك نقودا الآن ؟

سميرنوف : اذن ، أنت لا تستطيعين أن تدفعي لي ؟

السيدةبوبوفا : كلا ، لا أستطيع •

سميرنوف : هم ، وهذه هي كلمتك الاخيرة ؟

السيدةبوبوفا : نعم ، الكلمة الاخيرة !

سميرنوف : الكلمة الاخيرة ؟ الاخيرة نهائيا ؟

السيدة بوبوفا : نهائيا !

سميرنوف : شكرا جزيلا لك . وسأذكر لك هذا كله . (يهز كتفيه) . ويريدني الناس أن أحافظ على هدوئي . لقد التقيت بالوكيل في الطريق ، فسألني : « لم أنت دائم الغضب ، ياجريجوري ستيبانوفيتش؟ ولكن ، كيف لا أغضب بحق السماء ؟ انني بحاجة قصوى الى المال حالا . لقد خرجت البارحة ، في الصباح الباكر ، وعرجت على كل من يدين لي ، ولكن أحدا منهم لم يدفع لي كوبيكا ! لقد أنهكت نفسي ، ولقد نمت البارحة والله وحده يدري أين نمت ، في خان يديره بعض اليهود ، وغفا بجانب رأسي برميل من الفودكا .. وفي النهاية ، وصلت الى هنا ، بعد أن قطعت مسافة تقرب من خمسين فرسخ ، على أمل أن أقبض شيئا من المال ، فاذا بي أقابل « بحالة نفسية » ! كيف لم يتملكني الغضب ؟!

السيدة بوبوفا : أعتقد أني أوضحت لك أنك ستحصل على نقودك حالما يرجع وكيل أعمالي من المدينة .

سميرنوف : أنا لم آت الى وكيل أعمالك ، بل اليك أنت ! أي عمل شيطاني ـ واعذري هذا القول ـ أستطيع أن أعمل مع وكيل أعمالك !

السيدة بوبوفا : اعذرني ، ياسيدي ، فأنا لم أعتد الاصغاء الى مثل هذه اللغة ، أو مثل هذه النغمة . ولن أصغي اليك أكثر مما أصغيت . (تخرج مسرعة) .

سميرنوف : هذا شيء رائع ! ليست في «حالة نفسية» وزوج توفي منذ سبعة شهور ! وماذاعني؟ هل يجب أن أدفع الفوائد أم لا ؟ اني أسألك : هل يجب أن أدفع أم لا ؟ حسنا ، لقد توفي زوجك ، ولست في حالة نفسية ، وذلك كله .. ووكيل أعمالك ، أخذه الشيطان ، سافر الى مكان ما ، لكن ، ماذا تريدين مني أن أفعل ؟ هل أهرب من وجه الدائنين ممتطيا أحد مناطيد الهواء ، أم ماذا ؟ أم تتوقعين مني أن أضرب رأسي بجدار من القرميد ؟ لقد ذهبت الى جروسديف فلم أجده في بيته ، أما ياروشوفيتش فقد خبأ نفسه مني . وقد كان بيني وبين كورتسين عدة شتائم عنيفة حادة ، فكدت أحمله الى النافذة وأرميه منها . ومازوتوف معدته مضطربة . وتجيء هذه المرأة ـ بحالتها النفسية ! ليس أحد من هؤلاء الانذال يريد أن يدفع لي ! وما ذلك الا لانني كنت ودودا معهم الود كله ! لانني كنت أتخاذل في مطالبتهم ، فأذوب كالشمع بين أيديهم ! حسنا ، انتظري قليلا ! وسترين ما ستؤول اليه حالي ! لن أدعك تسخرين مني ، أخذك الشيطان ! سأظل قابعا هنا حتى تدفعي ما عليك من مال ! برررر.. لكم أنا غاضب اليوم ، لكم غاضب أنا ! وكل نبضة من أعصابي ترتجف حنقا وغضبا ، ولست أستطيع التنفس الا بصعوبة .. أوف ! يا الهي الطيب ، اني لاشعر بالمرض حقا ! (يصيح) أيها الخادم ! (يدخل لوقا) .

لوقا : ماذا تريد ؟

سميرنوف : ائتني بقليل من الكفاس [1] ، أو جرعة من الماء . (يخرج لوقا) كلا ، أي منطق هو هذا ؟ رجل في أشد الحاجة الى نقوده ،

---

(١) شراب روسي يستخرج من خبز أسود .

رجل يكاد أن يعلق نفسه من رقبته ، وهي لا تريد أن تدفع له ، لانها ، كما ترون ، في حالة نفسية لا تسمح لها بالاهتمام في المسائل المالية ! انه حقالمنطق نسائي سخيف ! وهذا هو ما جعلني أكره النساء ، وأصدف عن التحدث اليهن ، ولا أعرف كيف أتحدثاليهن . واني لافضل أن أجلس على برميل من البارود من أن أتحدث الىامرأة . بررر .. اني أشعر بالبرد القارس — ان هذه المرأة لتثير غيظي ! وأنا لا أطيق أن أرى واحدة من هاته المخلوقات البشرية الخيالية ، ولو عن بعد ، الا وأغرق في بحر من العرق البارد بسبب من الغضب الشديد الذي ينصب في جوانحي . انه يرغمني على أن أصيح طالبا النجدة . (يدخل لوقا يحمل قليلا من الماء) .

لوقا : ان السيدة مريضة ، وهي لا ترغب في مقابلة أحد .

سميرنوف : أخرج ! (يخرج لوقا) . مريضة ، ولا ترغب في مقابلة أحد ! لا ، ذلك حسن جدا ، لا تستقبليني — سأبقى ههنا حتى تدفعي لي . تستطيعين التمارض طوال أسبوع ، اذا شئت ورغبت،وسأظل قابعا هنا طيلة ذلك الاسبوع ، واذا ما استطال مرضك سنة فسأبقى هنا سنة أيضا . لسوف أستردنقودي ، ياعزيزتي الطيبة ! لن تهزأي مني بواسطة ثوب حدادك ، أو وجهك المبرقش بالبثور .. ونحن نعرف ماهية هذه البثور ! (يصيح من النافذة) سيمون ، حل أوثقة الخيل! اننا لن نرحل عن هذا المكان عاجلا ! انني باق هنا ! قل لهم في الاسطبل أن يقدموا الشوفان للخيل ! أنت ، ياأحمق! لقد تركت ساق الحصان تشتبك بالعنان ثانية ! (متهكما) « لا بأس في ذلك ».. سوف أؤدبك « لا بأس ! » . (يبتعد عن النافذة) أوه ، يا للهول .. الحر لا يطاق ، وليس من يدفع لي ، ولقدقضيت بالامس ليلة ليلاء ، وهذه السيدة الآن في ثياب الحداد ، وحالتها النفسية المضطربة! ان رأسي ليؤلمني .. أأشرب قليلا من الفودكا ؟ بلى ، أظن أنه يجب أن أفعل ذلك . (يصيح) أيها الخادم ! (يدخل لوقا) .

لوقا : ماذا تريد ؟

سميرنوف : هات لي قدحا من الفودكا ! (يخرج لوقا) أوف ! (يجلس ويرتب ثيابه) ينبغي أن أقول اني أبدو في حال حسنة ! لباسي مغبر ، وحذائي متسخ ، وأنا غير مغتسل ، وشعري لم يمشط ، وهذا بعض التبن على سترتي .. لا غرابة أنتحسبني السيدة من قطاع الطرق . (يتثاءب) انها قلة حياء أن أدخل غرفة استقبالوأنا على هذه الحال ، ولكن ، لا حرجعلي.. فلست ضيفا ، ولكنني دائن ، وليس من ثياب خاصة يرتديها الدائنون .. (يدخل لوقا يحمل الفودكا) .

لوقا : أنت تسمح لنفسك بالتمادي كثيرا ، يا سيدي .

سميرنوف : (في غضب) ماذا تقول ؟ .

لوقا : أنا .. أنا .. لا شيء .. لقد أردت فقط ..

سميرنوف : مع من تظن نفسك تتحدث ؟ اخرس !

لوقا : (على حدة) لقد حل الشيطان علينا .. وقد حملته الناروحشريرة .. (يخرج)

سميرنوف : أوه ، لكم أنا غاضب ! وقد بلغ غضبي درجة أظن معها أنني قادر على سحق العالم كله ، فأحوله الى حطام منتثر . أحس انني مريض . (يصيح) أيها الخادم ! (تدخل السيدة بوبوفا) .

السيدةبوبوفا : (مطرقة العينين) سيدي ، لقد اعتدت في وحدتي أن أبتعد عن الرجال وأصواتهم، وكذلك لست أطيق الصياح بتاتا . واني أطلب منك ألا تعكرعلي وحدتي وراحتي!

سميرنوف : ادفعي لي نقودي ، فأرحل سريعا .

السيدةبوبوفا : أفهمتك بلغة صريحة أنني لا أحمل الآن نقودا . انتظر الى ما بعد غد .

سميرنوف : وأنا ، بدوري ، كان لي الشرف أن أفهمك بلغة صريحة أنني في حاجة الى المال هذا النهار ، وليس بعد غد . فان لم تدفعي لي اليوم ، فسأجدنفسي مضطرا الى الانتحار غدا .

السيدةبوبوفا : ولكن ، ماذا أفعل ان كنت لا أملك مالا؟ يالك من شاب غريب الاطوار !

سميرنوف : اذن ، فأنت لا تريدين أن تدفعي الآن ؟ أليس كذلك ؟

السيدبوبوفا : أنا لا أستطيع .

سميرنوف : في مثل هذه الحال سأبقى هناحتىأحصل على نقودي . (يجلس) أنت ، أنت ستدفعين لي بعد غد ؟ عظيم ! سأظل هنا الى ما بعد غد .. (يقفز واقفا) ولكني أسألك : أينبغي أن أدفع الفوائد غدا أم لا ؟ أم تحسبين أني أمزح ؟

السيدةبوبوفا : يا سيدي ، رجائي اليك ألا تصرخ . فلست في اسطبل !

سميرنوف : أنا لا أسألك عن اسطبل . أسألك : أينبغي أن أدفع الفوائد غدا ، أم لا ؟

السيدةبوبوفا : أنت لا تحسن السلوك في حضرة النساء!

سميرنوف : لا ، ياسيدتي ! اني أحسن السلوك في حضرة النساء !

السيدةبوبوفا : كلا ! أنت تجهل ذلك تماما ! أنتانسان وقح ، قليل التهذيب ! فالمؤدبون من الناس لا يخاطبون النساء على هذا الغرار !

سميرنوف : رائع ، بديع ! كيف تريدين مني أن أخاطبك ؟! أأوجه اليك الكلام بالفرنسية؟ ايه ؟ (يفقد هدوء أعصابه ويتكلم لاثغا) شد ما أنا سعيد لانك لن تدفعي لي .. آه ، اذا أنا أزعجتك ! ما أجمل هذا الطقس اليوم ! ولكم تبدين جميلة في لباس الحداد هذا ! (ينحني ويضرب عقبيه ببعضهما) .

السيدةبوبوفا : هذه حماقة وخشونة !

سميرنوف : (يقلدها ليغيظها) هذه حماقة وخشونة! أنا لا أعرف كيف أتصرف في حضرة النساء! سيدتي ، لقد رأيت في حياتي من النساء أكثر مما رأيت أنت من عصافير الدوري! ولقد تبارزت ثلاث مرات من أجلهن ، وهجرت اثني عشرة أمرأة ، وتسع هجرنني ! بلى ، يا سيدتي ! لقد مر بي زمن جننت فيه كثيرا ، وأصبحت عاطفيا، وصرت أهذب ألفاظي وأستعمل كلمات معسولة ، ورحت أهندم ملابسي، وأمسيت أنحني في لطف .. ولقد اعتدت أن أحب ، وأتألم ، وأتأوه في ضوء القمر ، وأكون فظا ، وأذوب ، وأتجمد .. واعتدت أن أحب حبا عنيفا ، جنونيا ، عاطفيا ، أخذني الشيطان ! ولقد اعتدت أن أرتجف كما يرتجف طير العقعق ،

وأضعت نصف ثروتي في احساسات ومشاكسات عاطفية • بيد أنني الآن – أرجو أن تصفحي عني ! – لن أسمح بأن يحدث ذلك ثانية • فلقد تحملت كفاية ! العيون السود ، النظرات الملتهبة ، الشفاه الحمر ، الخدود المنقطة ، ضوء القمر ، الهمسات ، الانفاس المتقطعة •• ذلك كله لن أدفع في سبيله نحاسة واحدة ، يا سيدتي ! وأستثنيك من الحكم الذي سأصدره اذ أقول : ان النساء جميعا ، كبيراتهن وصغيراتهن ، كلهن مداهنات ، منافقات ، نمامات ، حقودات ، كاذبات حتى مخ عظامهن ، مهمومات ، حقيرات ، حائرات ، عديمات الادراك •• وأما بالنسبة الى هذا •• (يضرب على جبهته) واعذريني ان كنت صريحا ، ففي مقدور العصفور الدوري التافه أن يوحي بالشيء الكثير الى فيلسوف ناشيء ! وأنت تمد بصرك الى واحدة من هاته المخلوقات الشعرية : انها منسوجة من الموسلين والمخمل ، تكاد أن تكون نصف الهة ، يستخفها الطرب ، لكن ابحث في روحها ، فماذا ترى غير تمساح عادي ! (يضغط على ظهر كرسيه بحيث يطقطق ويتكسر) • لكن الامر الاكثر اثارة هو أن هذا التمساح يتصور ، لسبب ما ، أن الاحاسيس الرقيقة هي وقف عليه ، هي امتياز له ، هي انحصار به وحده ! والحقيقة ، أخذ الشيطان ذلك ، هي أن المرأة لا يمكن أن تحب أحدا غير كلبها الصغير ! وهي ان أظهرت حبا ، فليس في مقدورها أن تفعل سوى الانتحاب والهمهمة ! وبينما يتعذب الرجل ويضحي ، فان حبها يجد تعبيرا له في الانتحاب ومحاولة القبض على أنفك بشدة • ومن سوء حظك ، يا سيدتي ، أن تكوني امرأة ، وهكذا أتيح لك معرفة طبيعة النساء معرفة كاملة • أخبريني بصراحة ، اذن ، هل رأيت في حياتك امرأة مخلصة ، أمينة ، وفية ؟ أنت لم تري قطعا ! ان العجائز والكسيحات هن وحدهن الامينات الوفيات • وأسهل على المرء أن يرى قطة بقرنين ، أو نقار خشب أبيض ، من أن يرى امرأة وفية !

السيدة بوبوفا : اسمح لي أن أسألك اذن ، من هو ، في رأيك ، الامين الوفي في الحب ؟ أهو الرجل ؟

سميرنوف : نعم ، يا سيدتي ، الرجل !

السيدة بوبوفا : الرجل ! (تضحك في مرارة) الرجل أمين وفي في الحب ! يالها من أنباء (في حرارة) أي حق يجيز لك أن تقول هذا ؟ الرجال أمناء وثابتون في الحب ! في مثل هذه الحال ، اسمح لي ، أن أخبرك أن من بين كل من عرفت في الماضي من رجال ، كان زوجي الراحل أفضلهم جميعا ! لقد أحببته حبا جنونيا ، أحببته بكل جوارحي ، أحببته مثلما تستطيع المرأة الشابة الذكية أن تحب • لقد منحته شبابي ، وسعادتي ، وحياتي ، وثروتي ، كنت أعيش وأتنفس به ، كنت أعبده كما لو كنت وثنية أو •• ولكن ، كيف كان هو ؟ كان أن ذلك الرجل الممتاز يخونني بشكل مخجل في كل خطوة ! ولقد عثرت ، بعد وفاته ، على صندوق يعج بالرسائل الغرامية في أحد أدراجه • وكان قد اعتاد في حياته – وهذا شيء مريع اذ أذكره ! أن يخلفني

وحيدة أسابيع كاملة متتالية ، ثم يغازل النساء الاخريات أمام عيني ، ويخونني على الدوام . لقد بذر مالي ، وهزأ من شعوري .. وعواطفي !.. ولكنني ، رغم ذلك كله ، كنت أحبه وأخلص له .. وليس هذا كل شيء ، بل ظللت مخلصة له ثابتة على ذكراه حتى بعد وفاته . ولقد دفنت نفسي بين هذه الجدران الاربعة الى الابد ، ولن أخلع عن جسدي لباس الحداد هذا حتى أنزل في قبري ..

سميرنوف : (ضاحكا في خبث) حداد ! .. أنا لا أفهم شيئا مما تقولين ! وكأنني لا أعرف لم أنت ترتدين ثياب الحداد السوداء هذه ، وقد دفنت نفسك بين جدران أربعة ! هذا أمر غريب جدا ، شاعري جدا ! يا للغرابة ! يا للخيال ! انك ولا ريب تأملين أن يمر أحد الفرسان أو الشعراء التافهين ، ويشخص الى نافذتك ، ويحدث نفسه قائلا : « هنا ، هنا تعيش تمارا الغريبة ، التي دفنت نفسها بين جدران أربعة في سبيل حبها لزوجها !» . ان هذه الالاعيب لا تخفى علينا !

السيدةبوبوفا : (ثائرة) ماذا ؟ كيف تجرؤ على مخاطبتي بمثل هذا الكلام ؟

سميرنوف : لقد دفنت نفسك حية كما تزعمين ، ولكنك لم تنسي أن تصبغي وجهك بالمساحيق !

السيدةبوبوفا : كيف تتجاسر وتخاطبني هكذا ؟

سميرنوف : أرجوك ، أرجوك ، لا تصرخي ! فلست وكيل أعمالك ! اسمحي لي أن أنعت الاشياء بأسمائها الحقيقية . لست امرأة ، وقد اعتدت أن أعرب عن رأيي صراحة ودون مواربة ! آمل ألا تصرخي ثانية !

السيدةبوبوفا : أنا لا أصرخ ، وانما أنت الذي تصرخ ! أرجوك ، دعني وشأني !

سميرنوف : ادفعي مالي عندك من نقود ، ولسوف أذهب .

السيدةبوبوفا : لن أدفع لك شيئا !

سميرنوف : أوه ، كلا ، يا سيدتي ، بل ستدفعين لي مالي !

السيدةبوبوفا : لن أدفع لك شيئا ، لمجرد اغاظتك فحسب . دعني وشأني !

سميرنوف : ليس مما يسرني أن أكون زوجك أو خطيبك ، ولهذا أرجو ألا تختلقي الروايات . (يجلس) فأنا ، أنا لا أحب ذلك .

السيدةبوبوفا : (ترتجف غضبا) أتجلس أيضا ؟

سميرنوف : نعم ، أجلس !

السيدةبوبوفا : أطلب اليك أن تخرج من هنا !

سميرنوف : ادفعي لي نقودي .. (على حدة) أوه، لكم أنا غاضب ! (لكم أنا غاضب) .

السيدةبوبوفا : يا للوقاحة ! اني لا أريد أن أتحدث اليك . أرجوك أن تخرج من هنا ! (صمت) أفلن تخرج ؟ لا ؟

سميرنوف : لا !

السيدةبوبوفا : لا ؟

سميرنوف : لا !

السيدةبوبوفا : حسنا ، اذن ! (يدخل لوقا) لوقا ، أخرج هذا السيد !

لوقا : (يقترب من سميرنوف) يا سيدي ، كن لطيفا وأخرج حين يطلب اليك الخروج! لا تكن ..

سميرنوف : (يقفز واقفا) اخرس ! مع من تظن نفسك تتكلم ! سأقطعك اربا !

لوقـــا : (يضع يده على قلبه) رباه !•• أيهـا القديسون !•• (يرتمي على مقعد قريب) أوه ، أنا مريض ، أنا مريض ! لا أقوى على التنفس !

السيدةبوبوفا : لكن ، أين الخادم داشا ؟ داشا ؟ (تصيح) داشا ! بيلاجيا ! داشا ! (تقرع الجرس)•

لوقـــا : أوه ! لقد خرج الجميع يقطفون توت العليق •• ليس ثمة انسان في الدار •• اني مريض ، أعطوني ماء !

السيدةبوبوفا : (الى سميرنوف) أرجوك أن تخرج !

سميرنوف : ألا يمكن أن تكوني أكثر تأدبا ؟

السيدةبوبوفا : (تجمع قبضتيها وتضرب الارض بقدمها) أنت دب ! بهيم ، جعجاع ، وحش !

سميرنوف : ماذا ! ماذا قلت ؟

السيدةبوبوفا : قلت انك بهيم ، وحش !

سميرنوف : (مقتربا منها) اعذريني ، ولكن بأي حق تهينينني ؟

السيدةبوبوفا : أجل ، اني أهينك ، وماذا في ذلـك ؟ أتحسب أني أخافك ؟

سميرنوف : وأنت ، أتحسبين أن كونـك مخلوقـة شعرية يخول لـك الحق في أن تهيني الناس دون أن ينالك عقاب ؟ ايه ؟ اني أدعوك للمبارزة !

لوقـــا : رباه ! •• أيها القديسون ! •• ماء !

سميرنوف : لسوف نتبارز بالرصاص !

السيدةبوبوفا : أتحسب أنـي أخافـك اذا كنت تملك قبضتين واسعتين وحلق ثور قوي ؟ هه ، قل ؟ أنت ، أيها الثور !

سميرنوف : لسوف نتبارز ! اني لا أسمح لمخلوق أن يحقرني ، ولا يهمني أن تكوني امرأة ، واحدة من الجنس الضعيف •

السيدةبوبوفا : (تحاول منعه عن الكلام) دب ! دب ! دب !

سميرنوف : لقد آن الاوان لان نضع حدا لذلك الوهم القائل ان على الرجال وحدهم أن يدفعوا ثمن الاهانات •• ان المساواة في الحقوق هي المساواة في الحقوق ، أخذ الشيطان ذلك كله ! سوف نتبارز !

السيدةبوبوفا : بالمسدسات ؟ حسنا ، حسنا !

سميرنوف : الآن ، في هذه اللحظة •

السيدةبوبوفا : في هذه اللحظة ! لقد كان لزوجي بعض المسدسات •• سآتي بها سريعا ! (تخرج ولكنها ترجع سريعـا) يا للفرحة التي تسيطر على جوانحي عندما أودع رأسك الغليظ هذا رصاصة من مسدسي! أخذك الشيطان ! (تخرج) •

سميرنوف : سوف أرديها بطلقتي كما أردي بطـة صغيرة • لست طفلا ، ولا جروا صغيرا عاطفيا • وأنا لا أعترف بوجود مايسمونه « المخلوقات الضعيفة » !

لوقـــا : (الى سميرنوف) يا سيدي ، يا سيدي الكريم ! (يجثو على ركبتيه) اشفق على رجل هرم مسكين ، وقدم لي معروفا ـ واخرج من هنا ! لقد أخفتني حتى كدت أهلك من الرعب ، وها أنتذا الآن تريد المبارزة !

سميرنوف : (دون أن يعيره اهتماما) المبارزة ! انها المساواة في الحقوق ! انهـا التحرر من العبودية ! هنا يتساوى الجنسان ! سأطلق النار عليها باسم هذا المبدأ ! ولكن ، يالها

امرأة ! (يقلدها) « أخذك الشيطان ..
سأدرع رأسك الغليظ هذا رصاصة من
مسدسي » . يا لها امرأة ! لكم كانت
متجمسة ، ولكم تورد خداها !.. ولقد
قبلت دعوتي الى المبارزة ! وربي ، انها
المرة الاولى في حياتي أرى مثل هذه
الصلابة .

لوقا : يا سيدي الكريم ، تفضل بالخروج ،
وسأصلي الى الله من أجلك دائما وأبدا !

سميرنوف : انها امرأة حقيقية ! وهذا هو النوع الذي
أفهمه من النساء ! امرأة حقيقية ! انها
ليست من ذلك الصنف المائع المتصنع ،
بل هي نار ، وبارود ، وشهاب مضيئة !
واني آسف اذ أود أن أقتلها !

لوقا : (باكيا) سيدي .. سيدي العزيز ،
أرجوك أن تذهب !

سميرنوف : لقد أحببتها وفتنت بها ! نعم ، أحببتها !
وعلى الرغم من تلك البثور التي تملأ
خديها ، فاني أحبها ! واني على استعداد
لان أتنازل لها عن المطالبة بديني .. ولم
أعد حانقا على الاطلاق .. يالها امرأة
رائعة ! (تدخل بوبوفا تحمل المسدسات) .

السيدة بوبوفا : هذه هي المسدسات . لكن ، قبل أن نطلق
النار ، أرجوك أن تريني كيفية استعمالها .
فأنا لم أحمل مسدسا في يدي من قبل
قط .

لوقا : أوه ، يا الهي ، كن رحوما بنا ! سأنطلق
أبحث عن السائق والبستاني . من أين
هبط علينا هذا البلاء ؟ (يخرج) .

سميرنوف : (يتفحص المسدسات) أنظري ، ان ثمة
أنواعا عديدة من المسدسات . فهناك
المورتيمر ، وهو خاص بالمبارزات ، وهو
ذو كبسولة .. وأما هذه فمن نوع
سميث وديسون ، وتستعمل من غير
كبسولة .. انها مسدسات فاخرة . وان
الزوج منها يساوي أكثر من تسعين
روبلا .. يجب أن تقبضي على المسدس
هكذا .. (على حدة) يالعينيها ! يالعينيها !
يالها امرأة تبعث النار في جوانحك !

السيدة بوبوفا : أهكذا يجب أن أفعل ؟

سميرنوف : أجل ، هكذا ، ثم ترفعين الغماز ..
وتصوبين الى الهدف ، هكذا .. أرجعي
رأسك الى الوراء قليلا ! ومدي ذراعك
جيدا .. هكذا .. ثم تضغطين على هذا
الزناد باصبعك ـ وهذا كل شيء ..
والاكثر أهمية في ذلك كله ، هو أن
تحتفظي بهدوئك ، وأن تصوبي بهدوء
.. حاولي ألا تضطرب ذراعك .

السيدة بوبوفا : حسنا . لكن ، أرى أنه لا يليق بنا أن
نطلق النار في الغرفة . فلنخرج الى
الحديقة .

سميرنوف : هيا بنا اذن ، ولكني أحذرك أني سأطلق
النار في الهواء .

السيدة بوبوفا : آه ، انها الخرافة الاخيرة ! وفيم ذلك ؟

سميرنوف : لاني .. لاني .. لان ذلك من اختصاصي
وحدي .

السيدة بوبوفا : أأنت خائف ، ما ؟ آه ! آه ! آه ! كلا ،
يا سيدي ، لا تحاول التهرب من ذلك !
تفضل واتبعني ! فأنا لن أرتاح حتى أفتح
ثغرة في جبينك .. هذا الجبين الذي
أبغضه كثيرا ! أخائف أنت ؟

سميرنوف : نعم ، خائف .

السيدةبوبوفا : أنت كذاب ! لم لا تريد المبارزة ؟

سميرنوف : لاني .. لانك .. لاني أغرمت بك ..

السيدةبوبوفا : (تضحك بمرارة) لقد أحبني ! انه يجرؤ على المجاهرة بذلك ! (تشير الى الباب) هذا هو الطريق !

سميرنوف : (يضع المسدس في هدوء ، ويحمل قبعته ويتجه صوب الباب ، وهنالك يقف برهة ، وهما يتطلعان الى بعضهما في صمت ، ثم يدنو منها ويقول في اضطراب) اسمعي .. ألا تزالين غضبى ؟ أنا أيضا أتفجر غضبا .. ولكن ، حاولي أن تفهميني .. كيف يمكنني الافصاح عما يعتلج في صدري ؟ .. ان الواقع هو .. كما ترين .. على هذا الغرار .. وهو أن .. هذا ما يقال . (يصرخ)حسنا ، أهي خطيئتي ان كنت أحببتك ؟ (يضغط على ظهر الكرسي ، فيقرقع ويتكسر) يا للشيطان ! ان أثاث منزلك سهل الانكسار ! لقد أعجبت بك! هل تفهمين ؟ وأنا على وشك الوقوع في غرامك ..

السيدةبوبوفا : أخرج من هنا ، فأنا أكرهك !

سميرنوف : يا الهي ! يالها امرأة ! اني لم أر في حياتي كلها مثل هذه المرأة ! لقد ضعت! لقد انتهيت ! لقد وقعت في المصيدة كالجرذ !

السيدةبوبوفا : أغرب عن وجهي ، والا أطلقت النار !

سميرنوف : أطلقي النار ! أنت لا تعرفين مبلغ السعادة التي تغمرني عندما أموت بالقرب من هاتين العينين الجميلتين .. أو أن أقتل برصاصة مسدس تقبض عليه هذه السيدة المخملية الصغيرة ! لقد فقدت صوابي وخرجت عن أطواري .. فكري في الامر ، ثم اصدري كلمتك عاجلا ، لاني ان خرجت الآن من هذا البيت فلن نرى بعضنا أبدا ! قرري الآن . اني صاحب أملاك ، وشخصية محترمة ، يتجاوز دخلي السنوي عشرة آلاف روبل .. واني لاستطيع أن أطلق النار على قطعة من العملة ألقيت في الهواء ، فأصيبها .. وأنا أملك بعض الخيول الممتازة . أترضين أن تكوني زوجة لي ؟..

السيدبوبوفا : (تهز المسدس في حنق) فلنتبارز ! هيا ! احمل مسدسك !

سميرنوف : لقد فقدت صوابي . ولست أفقه شيئا.. (يصيح) أيها الخادم ! هات بعض الماء !

السيدةبوبوفا : (تصيح) هيا ! فلنتبارز !

سميرنوف : لقد جننت ، لقد وقعت في الحب كالصغير، كالاحمق ! (يمسك يديها ، فتصرخ من الالم) . أحبك ! (يجثو على ركبتيه) أحبك حبا ما أحببت مثله من قبل قط ! لقد هجرت اثني عشر امرأة ، وتسع هجرنني . ولكنني لم أحب احداهن قدر ما أحبك الآن . اني أذبل . أني أذوب . اني أنصهر .. وهذا أنا الآن على ركبتي أجثو ، كالاحمق ، أطلب يدك .. واخجلاه ! واخجلاه ! اني لم أهو أحدا منذ خمس سنوات ، ولقد قطعت عهدا بذلك على نفسي . وفجأة وقعت في بركة الحب ، فجثوت على ركبتي ! اني أمنحك يدي ـ نعم أم لا ؟ ألا تريدين ؟ لا بأس ! (ينهض ، ويسرع نحو الباب) .

السيدةبوبوفا : انتظر لحظة !

سميرنوف : (يقف) حسنا ؟

السيدةبوبوفا : لا شيء • أخرج •• ولكن ، لا ، انتظر لحظة •• لا ، اذهب ، اذهب ! انـي أكرهك ! ولكـن ، لا •• لا تذهب ! أوه ، لو تدري كم أنا حانقة ، أنا ساخطة! (ترمي المسدس على الطاولة) لقد يبست أصابعي من هـذا الشـيء اللعين •• (تمزق منديلها في حنق) ماذا تنتظر ؟ أخرج من هنا !

سميرنوف : وداعا !

السيدةبوبوفا : نعم ، نعم ، أخرج ! •• (تصيح) الى أين أنت ذاهب ؟ انتظر لحظة ، لكن ، لا •• اذهب •• أوه ، لكم أنا حانقة ! لا تقترب مني ، لا تقربني !

سميرنوف : (مقتربا منها) شـد ما أنـا من نفسي غاضب ! لقد أصبحت كالتلميذ يتخبط في الحب • لقـد جثـوت على ركبتي •• (بخشونة) أهواك ! ما هذا الذي أرغمني على حبك ؟ غدا ، يجب أن أدفع الفوائد! ولقد بدأنا موسم الحصاد ، ولكن هذه أنت !•• (يلف خصرها بذراعيه) اني لن أغفر لنفسي هذا العمل !

السيدةبوبوفا : ابتعد عني ! ارفع يديك عن خصري ! أنا ، أنا أكرهك ! هيا ، فلنتبارز ! (قبلة طويلة • يدخل لوقا يحمل فأسا ، والبستاني يحمـل مجرفـة ، والسـائق يحمل شوكة حصاد ، وعدد من العمال يحملون قطعا من الخشب) •

لوقـا : (يراهما متعانقين يقبلان بعضهما) رباه ! أيها القديسون ! •• (صمت) •

السيدةبوبوفا : (مخفضة من عينيها) لوقا ، قل لهم في الاسـطبل ألا يقـدموا لتوبي شـيئا من الشوفان هذا النهار أبدا ••

(ستار)

ترجمة المحامي سهيل أيوب

